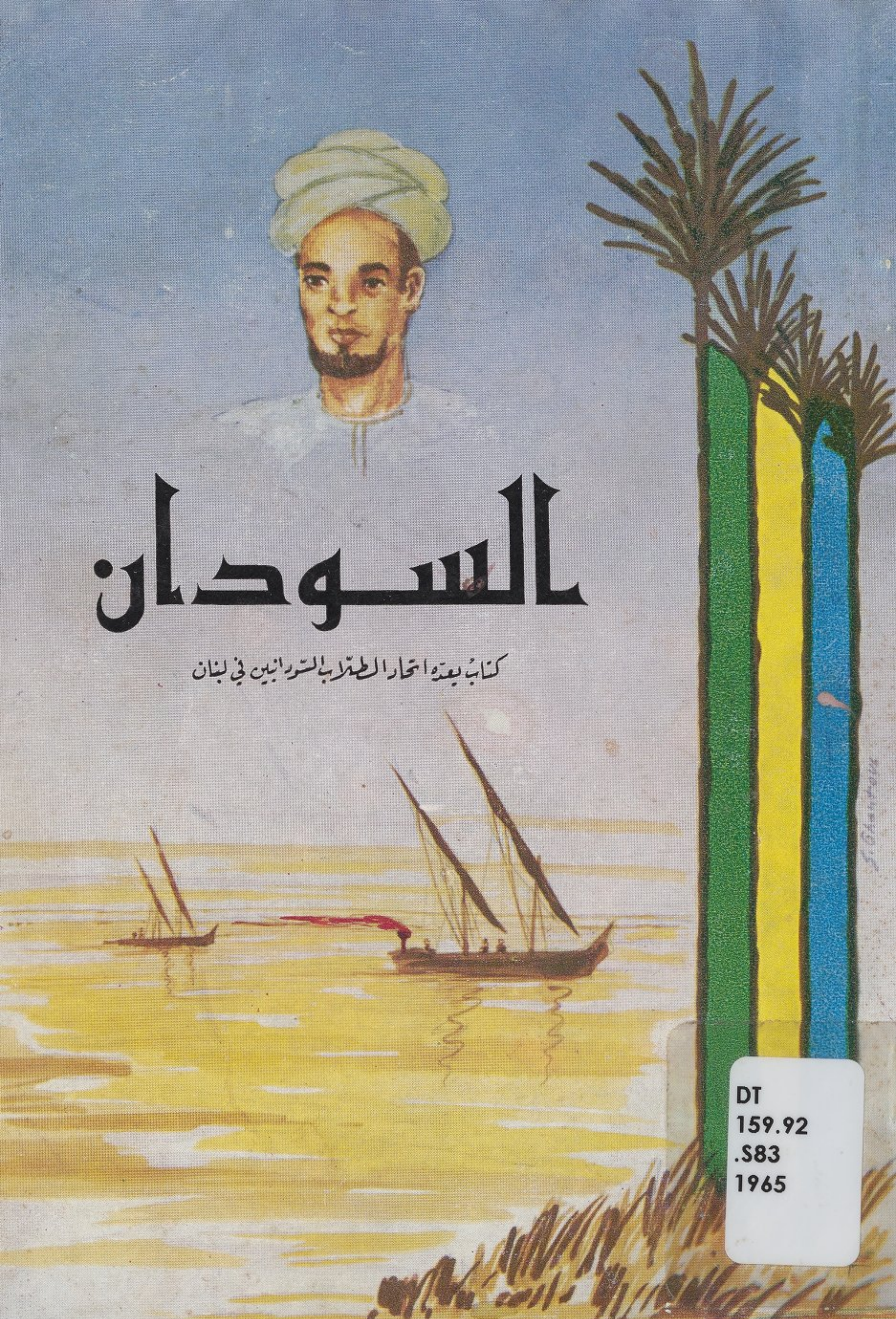

السودان

كتاب يعده اتحاد الطلاب السودانيين في لبنان

DT
159.92
.S83
1965

20.75.1
DT
159
.92
S83
1965
3302
HC.AB.03302
il 072686X

السُّودَان

كِتاب ثانوي يَصدُره اتحاد الطلاب السّودانيين بلِبنان

الكتاب الثالث

مكتبة قطر الوطنية
QATAR NATIONAL LIBRARY
عضو في مؤسسة قطر
Member of Qatar Foundation

١٩٦٥

الاهداء

الى شهداء ثورة اكتوبر الابرار الذين وهبوا
ارواحهم الطاهرة من اجل حرية الشعب
السوداني الأبي ...وعزته...وكرامته

لجنة الكتاب

فضل السيد العوض

عثمان محمد إيد عبدالله

سعد أحمد سعد

حسن عبد الرحمن الحسن صديق

احمد عمر عبيدالله

كلمة الاتحاد

عزيزي القارىء :

لما كنا ندرك بأن اشقاءنا العرب يجهلون الكثير عن شعب السودان العربي .. ولما كنا نعلم بان الكثيرين من ابناء السودان أنفسهم يجهلون نواحي متعددة عن بلادهم .. فقد درج اتحادنا على إخراج كتاب سنوي تعريفي بالسودان وها نحن نضع بين يديك كتابنا الثالث الذي يحتوي على مواضيع سياسية وتاريخية وجغرافية وأدبية عن السودان حرصاً منا على توثيق الروابط بين السودانيين واشقائهم العرب وايماناً منا بان شعوبنا العربية هي أحوج ما تكون لمعرفة بعضها البعض .. والالمام بمشاكل بعضها الآخر في هذه المرحلة الخطيرة من تاريخها ..

لقد حرص اتحادنا منذ نشأته على التعريف بالسودان والدعاية له بشتى الطرق وقد لعب اتحادنا دوراً كبيراً وشارك مشاركة فعالة مع اتحادات الطلاب العربية في لبنان في تأييد جميع الحركات التحررية في عالمنا العربي ومن مناهضة الخطر الصهيوني الذي يهدد شعبناالعربي .. ولقد ساهم اتحادنا مساهمة فعالة وجادة في مناهضة الحكم العسكري في السودان والذي ظل يسيطر على مقدرات الحكم في بلادنا لمدة ست سنوات عانى فيها شعب السودان الأبي الويل والعذاب على يد الديكتاتورية العسكرية الغاشمة .. ولقد كان لاتحادنا دور طليعي في تأييد وتعضيد ثورة ٢١ اكتوبر الفتية التي اعادت لشعبنا العظيم حريته .. وعزته .. وكرامته .. ونحن اذ نذكر ذلك إنما نحيي في اجلال واكبار وتقدير شهداء ثورة

اكتوبر الأبرار الذين ضحوا بدمائهم الطاهرة في سبيل القضاء على حكم عبود وزملائه عصابة ١٧ نوفمبر ..

عزيزي القارىء :

اننا نؤمن ايماناً راسخاً قويا بأن مستقبل شعوبنا العربية يقع على كاهلنا نحن الطليعة المثقفة .. ونحن نوقن بضرورة تعاضد وتكاتف جميع المنظمات الطلابية السودانية في داخل السودان وخارجه ومنظمات الطلاب العربية في جميع اجزاء الوطن العربي وفي رأينا ان هذا هو الطريق لمواجهة جميع الازمات والمحن التي تواجه شعبنا العربي .. وعليه فنحن نحث جميع منظمات الطلاب العربية لتعمل جادة على توثيق وتوطيد الروابط مع بعضها الآخر..

ولا يفوتني في هذه العجالة الا ان اشكر جميع الذين ساعدونا في اخراج كتابنا هذا..وأخص بالشكر الاستاذ الكبير قسطنطين زريق الذي ساهم مساهمة فعالة في تصحيح محتويات الكتاب والذي توج كتابنا بالتوطئة المنشورة في غير هذا المكان .. كما اشكر أيضاً الاستاذ أحمد حامد الفكي مساعد وكيل وزارة التربية والتعليم لجهده المقدر .. وللسادة ضرار صالح ضرار وعبد الرحمن الشبخ وحامد السنوسي واحمد اسماعيل النضيف ومحمد نور عمر اسحاق وعبد الرزاق علي لطفي الذين اشرفوا على تصحيح المواضيع والذين نوّرونا بارائهم وتوجيهاتهم وتعليقاتهم التي كان لها الفضل الاكبر في ظهور كتابنا بهذا المظهر المشرف .. كما اشكر ايضاً السيدة وداد عبدالله سكرتيرة الملحق الثقافي لتفضلها بطبع جميع المواضيع ..

نكرر شكرنا لجميع هؤلاء ولغيرهم ونرجو أن يسهم كتابنا في تعريف الاشقاء العرب بالسودان وأن يعمل على توثيق الروابط بين ابناء العالم العربي .. والله الموفق ..

عثمان السيد

رئيس اتحاد الطلاب السودانيين بلبنان

تو طئة

بقلم الاستاذ الكبير قسطنطين زريق

عندما طلب الي ان اكتب كلمة امهد بها لهذا الكتاب السنوي الثالث الذي اعده اتحاد الطلاب السودانيين بلبنان ، بادرت الى تلبية هذا الطلب بكل قبول وترحاب ، اعتقادا مني ان مثل هذا الجهد يبذله اعضاء الاتحاد هو من خير النشاطات التي يمكن ان تقوم بها المنظمات الطلابية وانه حري بكل رعاية وتشجيع .

ذلك ان شباب البلاد العربية — بل ابناء الشعوب العربية عامة ـ يجهلون الكثير من الحقائق المتصلة ببلدهم وبالبلاد العربية الاخرى . ولا تغني المناهج الدراسية التي يتبعونها في مختلف مراحل التعليم غناء كافياً في تعريفهم باوضاع مجتمعهم وفي اطلاعهم على احوال سائر المجتمعات العربية التي تنشط اليوم لتوثيق عراها وتمكين الروابط في ما بينها .

ومن هنا كانت هذه المحاولة السنوية التي يقدم عليها اتحاد الطلاب السودانيين بلبنان في كتابة مقالات تعالج نواحي من ماضي السودان وحاضره وتتطلع الى مستقبله ـ كانت هذه المحاولة خطوة حميدة في دفع اعضاء هذا الاتحاد الى الاقبال على دراسة مجتمعهم ، وفي وضع نتائج هذه الدراسة في متناول زملائهم الطلاب اللبنانيين وسواهم من الطلاب العرب الذين يرتادون مناهل العلم في لبنان .

ان الروابط الصحيحة الباقية بين الافراد وبين الشعوب هي التي تقوم على

اساس المعرفة المحققة المتبادلة . فالشعور وحده ـ مهما يكن قوياً ـ يظل معرضاً للتبدل والضياع بتأثير الاهواء والنزعات الداخلية والشدائد والتقلبات الخارجية. ولا يصمد دون هذه الاخطار ويبقى وينمو على الايام الا اذا دعمتـــه المعرفة الدقيقة الراسخة وسنده العلم الذي يقصد الحقيقة ويتقصاها ، انى تكن هذه الحقيقة ومهما تكن .

ولا يقتصر فضل هذا التقصّي على توسيع اطلاعنا على احوال بلادنا وما ينتج عنه من تنمية الروابط وتقوية الاواصر بيننا ، وانما يتعداه الى ميادين حياتنا الخاصة وحياتنا العامة بمجموعها. فنحن اليوم نعيش في عصر علم متوثب ومعرفة منطلقة ، ولا سلاح للشعوب امضى وانفذ من الدماغ المتفتح ، والعقل المتطور ، والفكر المتطور ، والفكر المتدرب القـــادر على جلاء اسرار الطبيعة وتفجير مكنوناتها وعلى تفهم الحياة الفردية والاجتماعية وضبط شؤونها وتنظيم علاقاتها .

فعسى ان تكون هذه المحاولة المشكورة لاتحاد الطلاب السودانيين بلبنان محاولة مستمرة تقوى سنة بعد سنة ويزداد نفعها في تمكين معرفة الطلاب السودانيين ببلدهم ، وفي نشر هذه المعرفة في صفوف زملائهم ، وفي تقوية الروابط في ما بينهم وتنمية صلاتهم بهؤلاء الزملاء ، وفي تمتين عزيمتهم على طلب الحقيقة الخالصة الثابتة في كل وجه من وجوه سلوكهم الخاص ومجهودهم العام .

ان كل غرض من هذه الاغراض ، والاخير منها على وجه التأكيد ، خليق بان يثير في نفوس اعضاء الاتحاد اوفر همة ونشاط وان يتلقى منا جميعا اصدق عون وتأييد .

في ٢٢ ايار ١٩٦٥

قسطنطين زريق

جذور الحركة الفكرية العربية في السودان

في القرن السادس عشر الميلادي

السيد ضرار صالح ضرار

سقطت دنقلا المدينة السودانية المسيحية في يـد الظاهر بيبرس في القرن الثالث عشر الميلادي ، وبتلك الحادثة التاريخية بدأ تقاطر القبـائل العربية من عدنانية وقحطانية الى الاراضي السودانية بشكل واسع . واستمر هذا التقاطر يزحف جنوباً وغرباً حتى ملأ كل انحاء السودان تقريبا .

وادخل العربي معه أشياء جديدة لم يعرفها السودانيون الاصليون فهو قد أدخل لغة جديدة مكتوبة ، ودينا جديداً له كتاب يقرأ ، وشعائر يمكن ان تؤدي في يسر وبساطة ، وعقيدة لا يخالطها تعقيد فكري .

لعل أهم أسباب نجاح العرب في تعريب السودانيين هو مقدرتهم على الانتفاع من وقت الفراغ الذي كان يصيب الاهلين في المساء حين يعودون من مزارعهم او مراعيهم ، فقد انشأ فقهاء العرب الخلاوى (الكتاتيب) الليلية لتعليم الدارسين القراءة والكتابة وخاصة قراءة القرآن بطريقة ترتيلية تثير النفوس ، وتملأ الصدور بشتى المشاعر .

بهذه الكتاتيب الليلية التي عرفت في السودان باسم الخلاوى استطاع العرب النازحون ان يبثوا جذور الحركة الفكريـة في السودان . كان السكان الاصليون يفدون الى تلك النيران التي كان يوقدها الفقهاء للقراءة بدافع حب الاستطلاع ، ولتمضية وقت الفراغ الذي لم يكن يملأ من قبل . وهكذا اخذ السودانيين يتلقفون اللغة العربية شيئاً فشيئاً .

مع هذه السيطرة الفكرية كانت هناك سيطرة دينية سياسية تسير جنبا الى جنب معها ، فان ذلك السوداني الذي كان يتلقى اللغة العربية انما كان يتعاطى دروسا اسلامية أقبل عليها وتملكت حواسه . وكان من جراء قبول السودانيين لهذا التعليم الجديد ان وجدوا انفسهم يدورون في الفلك العربي الاسلامي ، وينظرون الى هذا الدين كرابطة قوية بينهم وبين الشعوب الاسلامية العربية الاخرى .

كان أفراد من العرب النازحين يصاهرون زعماء القوم ثم يرثون زعاماتهم عن طريق انجالهم . وكانت لهم ارستقراطية يتميزون بها ، فهم يطلقون على أبنائهم أسماء عربية ولا يزوجون بناتهم الا لمن كافأهم في النسب ، ومن ثم كانوا وما زالوا يحتفظون بسلسلة انسابهم لكي يبرهنوا على أصالة محتدهم .

من هنا نستطيع ان نصل الى حقيقة هي أن العرب في السودان كانوا يلقنون السودانيين من نوبة وبجة وغيرهم فنين من العلوم في بداية الحركة الفكرية ، وكان هذان العلمان هما القرآن الكريم وحفظه وكل ما يتعلق به والعلم الثاني هو علم الانساب ، وبذلك كانوا يحفظون دينهم وقوميتهم . وكان من نتائج هذه العلوم ان انصهر السودان رويداً رويداً في العالم الاسلامي العربي فكرياً وروحياً بالرغم من ان النفوذ السياسي والاداري لم يكن قوياً حتى بداية القرن السادس عشر للميلاد .

ولعدة قرون لم يحاول العرب النازحون ان يبسطوا سلطانهم السياسي على السودان بالرغم من وجودهم في ارجائه باعداد كبيرة ، ولم تحاول قبائلهم ان تبني دولة موحدة عربية اسلامية ذات نظم ادارية في البلاد . ويرجع السبب في ذلك الى ضعف النضج السياسي في القبائل العربية البدوية التي نزحت الى السودان قبل القرن الخامس عشر ، فهي قبائل بدوية نزح اكثرها طلبا للمرعى والرزق والذهب . وقبلوا في اول عهودهم بالحكم النوبي المسيحي ، والحكم البجاوي الوثني ، بينما اكتفوا هم بالنفوذ الفكري والديني .

بيد ان القرون علمتهم ان النفوذ الفكري والديني لا يمكن ان يقف على قدم ما لم يكن هناك نفوذ سياسي قوي يوطد مركز الحركات الفكرية . ومن هنا بدأ وعي سياسي جديد اسفر عن محالفة القبائل العربية النازحة عن طريق الشمال ، والاخرى النازحة عن طريق زنجبار وتنجانيقا وكينيا بعد اختلاطها بالقبائل الافريقية ونزوحها على طريق قوافل الفلفل حتى بلغت شواطيء النيل الازرق بقيادة عمارة دونقس احد احفاد الامويين المنصهرين في الافريقيين ، واما حليفه من العرب الذين في شمال السودان فهو عبدالله جماع . واكتمل التحالف بين هذين الزعيمين لتقويض اركان الدولة السودانية المسيحية التي جعلت قصبتها في سوبا .

دل هذا الحلف العربي على نضج فكري فهو شعور بالمسؤولية من جانب النازحين العرب لكي يؤمنوا نشاطهم الفكري والديني في البلاد. ولما تم هذا الحلف هجم كل من عمارة وعبدالله على مملكة سوبا وهزموا ابطالها ، وخربوا ديارها ، ثم هجروها هجراً تاماً ، ورحل عمارة ليخطط عاصمته سنار وليصبح ملكاً على سلطنته التي عرفت بالسلطنة الزرقاء او مملكة الفونج ، بينما ذهب عبدالله ليجعل مركزه في جبل قرى ويصبح وزيراً لعمارة على ان يبقى الملك في نسل عمارة وتكون الوزارة في ذرية عبدالله .

خطط عمارة مدينة سنار مبتعدا قليلا عن سوبا ولم يكن هذا التغيير اعتباطاً بل كان نتيجة حتمية للصراع الفكري الدائر في البلاد آنذاك ، فقد كان عمارة يهدف الى القضاء على النفوذ النوبي والبيزنطي الكنيسة ، كما كان يؤمن باقامة عاصمة عربية اسلامية سودانية لها النفوذ الفكري والسياسي على بقية انحاء السلطنة . ومنذ ذلك الحين اصبحت سنار محتضنة الحركة الفكرية ورجالها في كل انحاء البلاد .

ولكي يدعم الفكر العربي فقد اخذ عمارة يشجع العرب النازحين من البلاد العربية الاخرى وخاصة ارض الحرمين للاقامة في السودان ، وذهب في ذلك مذهباً بعيداً حتى ان الرحالة اليهودي داود روبيني وجد لنفسه ارضاً خصبة

آنذاك ، وقد استغل الحماية والتشجيع اللذين كان يضفيهما عمارة على زوار البلاد ومكن لنفسه في مجلس السلطان السناري .

زار روبيني البلاط السناري في سنة ١٥٢٣ ميلادية ، ونزل ضيفا على الملك عمارة ، وادعى بانه قرشي مكي ، وانه من سلالة النبي (ص) . وبذلك وجد احتراماً وعطفاً من السلطان ، ولكنه خاف أن يفتضح أمره وذلك بسبب هجرة أفراد من العرب عن طريق سواكن ، ففر من البلاد حتى وصل الى اسبانيا ، وهناك اشتبهت فيه محاكم التفتيش المسيحية فقتلته حرقاً بالنار عند اكتشاف يهوديته .

لم تحدث زيارة روبيني اي أثر في الحياة الفكرية في السودان ولكنها دلالة قاطعة هي ومثيلاتها من اتجاه السودانيين آنذاك الى الانصهار في البلاد العربية قاطبة ، وقد كانوا يشعرون بانهم جزء لايتجزأ من العالم العربي ، كما كان النازحون من الاقطار العربية يجدون اهتماماً كبيراً من سلطان سنار وخاصة اولئك الذين كانوا يشغلون في حقول العلم والتفقيه .

ونشطت الحركة الفكرية العربية في السودان بفضل رعاية سلاطين الدولة ووزرائها للعلماء ولم ينقض وقت طويل على تأسيس الدولة السنارية حتى أخذ علماء السودان يغوصون في بحور الجدل ، ويثيرون النقاش الفكري بل وينقلونه من بلادهم الى بعض الاقطار العربية المجاورة وخاصة مصر .

حدث قبل حوالي اربعمائة سنة أن ظهرت في العالم الاسلامي العربي عادتا التدخين وشرب القهوة ، وكان السودان من بين الاقطار التي غزتها هاتان العادتان . واهتم علماء سلطنة سنار بهاتين القضيتين ، ولم يستطيعوا ان يقرروا ان كان التدخين حلالا أم حراما. وكانوا يشكون في شراب البن آهو محلل أم محرم. وبدأ مع هذه البلبلة الفكرية نشاط ذهني منقطع النظير يتقصى أسباب التحليل أو مسببات التحريم .

وتقصى السودانيون أمر شرب القهوة فعرفوا ان الشاذلي وهو احد علماء اليمن كان

من بين اوائل المتعاطين للقهوة من العلماء ، ثم بحثوا في أسباب التحريم اهو لانه يحرق ثم يشرب ، ام لانه يتعارض مع الصحة العامة او لانه متلف للمـــال . ونشطت المبررات الطبية في هذا الجدل اذ كان يريد بعض العلماء السودانيين أن يعززوا وجهة نظرهم في تحليله الى سند علمي طبي ، ولذلك رأى بعضهم أن يحللها لمن اطلقوا عليهم اهل الطبيعة البلغمية ، وكانما اتفقوا على ان القهوة تساعد على التخلص من النزلة الشعبية وما يتبعها من بلغم ، ولاحظوا أنها لاتصلح لمن سموهم باصحاب الطبيعة الصفراوية اذ ان تأثيرها يعود بالضرر على شاربها .

كثر الجدل بين العلماء في موضوع التدخين ايضا فقد راى الشيخ ادريس ابن الشيخ عبد الرحمن بتحريم تعاطيه بينما عارضه الشريف عبد الوهاب الذي اباحه . ولما اشتد الخلاف بين المؤيدين والمعارضين من العلماء جمعهم وزير السلطنة الشيخ عجيب المانجلك في مدينة رفاعة ؛ وعقد مجلسا لرجال العلم المتجادلين ، والتفت الوزير الى الشريف عبد الوهاب وقال له : « ان الشيخ ادريس حرم الدخان ، فما رأيك ؟ » ولم ترق هذه الفتوى للشيخ الشريف ، وتساءل ساخرا : « من أين أتى بهذه الفتوى ؟ أمن رأسه أم كراسه » . ثم اخذ يدحض فكرة التحريم في مجلس الشيخ عجيب . واحتج الشيخ ادريس بانه اعتمد في فتواه بتحريم الدخان على ما اصدره السلطان العثماني السلطان مصطفى من فتوى في ذلك الشأن . واستند في حججه بالمذهب المالكي الذي يقول بوجوب طاعة سلطان المسلمين في كل ما لم يرد فيه نص شرعي . وايد حجته ببعض المسائل التي لم يرد فيها نص بالتحريم في الشريعة ، والتي اتفق فيها الناس على قبول راى ولاتهم فيها .

ولكي يعضد حجته فقد لجأ الشيخ ادريس الى آراء جريئة ، فذكر ان النبي (ص) اخبره بتحريم الدخان ، وان كلا من الشيخ محمد الهميم والشيخ حسن ولد حسونة يشهد على ذلك ، وكان الشيخ محمد الهميم يعتبر من الاولياء الصالحين المصابين بلوثة من الدروشة جعلته يرتكب بعض المخالفات الشرعية الصريحة ، فقد تزوج باكثر من اربع في وقت واحد ، كما انه جمع بين الاختين . وكان الشيخ حسن ولد حسونة من كبار العلماء الصالحين . واضاف الشيخ ادريس بان القاضي

دشين وهو قاضي مدينة اريجي وممن عرفوا بالتفقه في الدين كان يشرب الدخان ولا ينكره على نفسه او غيره حتى توفي. واسترسل الشيخ ادريس قائلا بانه اذا سئل هذا القاضي في قبره الان عن حكم الدخان لنادى بتحريمه .

ومن طريف ما يحكى في هذا الموضوع ان الروايات تقول بان الشيخ ادريس ارسل بالفعل الشيخ دفع الله العركي العالم الجليل الى قبر القاضي دشين ، وهناك نادى دفع الله القاضي من قبره ، وساله عن امر الدخان ، فصاح القاضي من تحت قبره مجيباً الشيخ دفع الله وهو يقول له بان الدخان حرام ويكرر ذلك . ثم يضيف القاضي عبارات استغفار كثيرة لما ارتكب من معصية ويطلب من دفع الله ان يسأل الشيخ ادريس ليستغفر له الله على شربه الدخان .

غير ان هذا الحديث لم يعجز خصوم الشيخ ادريس اذ انهم ردوا على هذه الحجج بأن سؤال الميت لا يترتب عليه حكم شرعي ، وانه لا يخرج عن كونه من قبيل الكرامات ، ولذا فلا يمكن الاعتماد عليه .

فلما لم يتفق الجانبان على أمر التحليل والتحريم نقلا الجدل من السودان الى مصر يستشيران في ذلك علماءهـــا . فأرسل الشيخ ادريس رسوله الى الازهر لتوضيح وجهة نظره للعالم المصري الشيخ علي الاجهوري الذي كان معارضاً لفتوى الشيخ ادريس ، وحاول الشيخ ادريس ان يقنعه بحجته ، ولكن الشريف عبد الوهاب افاض في نشر رأيه على الاجهورى واتفقا على تحليل الدخان ، بينما كان العالم المصري ابراهيم اللقاني متفقاً مع الشيخ ادريس على تحريم الدخان وتحليل القهوة مع أن كليهما يشرب بعد حرقه . ونشط الجدل في مصر ايضاً بين اللقاني والاجهوري ، ولم يتوصل الى نتيجة واحدة . وتقول الروايات السودانية ان الاجهوري اقتنع آخر الامر بتحريم الدخان وتحليـــل القهوة ، وعاد المندوب السوداني بهذا الوفاق الى الشيخ ادريس بالسودان وهو يحمل بعض الهدايا من ذلك العالم المصري الجليل ، وكان من بين تلك الهدايا عمامة وراية للتدليل على مكانة العالم السوداني من نفوس زملائه العلماء المصريين بالرغم من اختلاف وجهات النظر .

هذه صورة من صور الحركة الفكرية العربية في السودان في فجر اسلامه ، وانتهت هذه المجادلات الفكرية العربية بين المدرستين السودانيتين حوالي سنة ١٥٧٠ ميلادية ، وهي تظهر بوضوح ان السودان قد شملته حركة فكرية اسلامية ، كما ان المفكرين فيه كانوا مرتبطين فكرياً في جميع اجزاء القطر ، هذا بالاضافة الى الرغبة الملحة التي اظهرها الوزير الشيخ عجيب المانجلك في تقصي الحقائق من المفكرين في ذلك العصر ، ولعل هذه الحركة أشبه ما تكون بحركة خلق القرآن أيام الخليفة المأمون ، وما الوزير عجيب الا ذلك الحاكم الذي تبنى حرية الفكر . ولقد اسهم المفكرون السودانيون بقسط وافر في وضع الاسس التي يبنى عليها الاجتهاد في الشريعة الاسلامية . ونضيف أيضاً أن علماء السودان لم يكونوا بمعزل عن العالم العربي الخارجي بل كانوا يشركونه في كل معضلة فكرية حتى اججوا الحركة الفكرية في كل انحاء العالم العربي وخاصة الازهر الذي كان فيه الرواق السناري يعج بطالبي العلم من السودانيين .

« في فلسفة الحضارة »

محمود احمد موسى
كلية الاداب والعلوم : تاريخ

اود في هذه المقالة ان ابين المفهوم العام لكلمة « حضارة » كما ينعكس في بعض آراء الفلاسفة والمؤرخين في الحضارة . الحضارة التي تناولها الكثيرون بالبحث والتمحيص ولم يخرجوا منها بمفهوم واحد معين رغم تقارب آرائهم في مظاهرها ومقوماتها .

مـــا هي المعايير التي يمكن بموجبها اطلاق هـــذه اللفظة على مجتمع من المجتمعات ؟ هذا ما ستوضحه لنا فلسفة الحضارة. ولكن، قبل ان نخوض في هذا الموضوع علينا أن نحدد معنى الفلسفة وعلاقتها بالحضارة .

ليس من السهل تحديـــد معنى الفلسفة لاننا كثيراً ما نسمع عن « فلسفة التاريـــخ » و « وفلسفة العلوم » و « فلسفة الفنون » و « وفلسفة الوجود » و « فلسفة الدين » « و فلسفة الاخلاق » ، الى غير ذلـــك من انواع الفلسفة المختلفة . فالفلسفة اذن ، وان كانت علما من العلوم يقوم وحـــده كسائر العلوم الاخرى ، الا انها تشترك في تقويم جميع العلوم الاخرى ، بل في تقويم جميع نواحي الحياة .

لقد ادرك الفيلسوف الامريكي « جون دوى John Dewey » صعوبة تعريف ماهية الفلسفة عندما قال : « اذا استطعت ان تكشف عن المميزات

الصحيحة والعمليات الاساسية في الحضارة فانك تستطيع ان تعرف الفلسفة[1] فالفلسفة بالنسبة له تعبير يفصح عن ثقافة [2] المجتمع في جميع نواحي الحياة . وعلاقتها بالحضارة والتاريخ علاقة جذرية لا يمكن ان تنفصم باي حال من الاحوال . فالفلاسفة هم جزء من التاريخ ، عملوا في تكوين الماضي ولا يزالون يعملون في اعداد المستقبل .

فالفلسفة اذن هي تعبير عن الثقافة ، تأخذ من الماضي وتعد للمستقبل، فهي بمثابة المحول الذي يتأثر بما حوله ويؤثر فيه لانها تجعل من الحضارة وعياً فكرياً يدفع بها الى الامام نحو التطور والرقي والازدهار .

الحضارة عند العرب :

لنرجع الى الحضارة لنرى مفهومها عند العرب القدماء . فالحضارة او « الحضر » لفظة اطلقوها ليفرقوا بها بين حياة البادية والحياة التي يحياها المجتمع الآخر من غير اهل البادية . فهي تعني حياة المدن او الاستقرار . وليس معنى هذا ان اهل البادية كانوا يفضلون حياة اهل الحضر ولكن على النقيض من ذلك كان البدوي يعتز ببداوته وشظف العيش فيها ويعتبر مجتمع المدن او الحضر مجتمعاً لا يستأهل حياته ولا يستحق اعجابه . غير ان هذه النظرة اخذت تتغير شيئاً فشيئاً بفضل ادراك البدوي لمنافع الحضارة خصوصاً بعد الفتوحات الاسلامية حيث صار البدوي ينظر الى مجتمع الحضر نظرة مغايرة فيها شيء من الاعجاب بحياة المدن والامصار .

وكان للمؤرخ العربي ابن خلدون المتوفي عام ١٤٠٦ م آراء مبتكرة في الحضارة رفعته الى مقام سام بين المفكرين الذين تناولوا هذا الموضوع . فقد

---

١ – John Dewey, Philosophy and Civilization, p. 6.

٢ – كلمة ثقافة في كل هذا المقال استعملت بمعناها الانثروبولجي الحديث اي Culture التي تعني مجموع عناصر الحياة واشكالها ومظاهرها .

عـــالج ابن خلدون « التاريخ » في مقدمته على اساس التفاعل بـــين البداوة والحضارة ، وخلص الى ان الحضارة هي طور طبيعي في حياة المجتمعات المختلفة وهي غاية للبداوة التي هي الاصل . والحضارة اصلاً هي عمليـــة اقتباس من المجتمع الحضري تقوى وتضعف ثم تموت بموت المجتمـع السياسي (او الدولة) الذي تتمثل فيه هذه الحضارة .

والحضارة عند ابن خلدون تحمل في طياتها بذور الضعف السياسي والخلقي معاً لما فيها من تحلل من العصبية القبليـــة ورابطة الدم ، وجنوح للاسترخاء والتمتع بملذات العيش .

الحضارة عند الغربيين :

كلمة حضارة او Civilization ليست كلمة قديمة في اللغة الانجليزية فقـد ظهرت بعد سنة ١٧٧٢ م وهي مشتقة من كلمة Civis اللاتينية التي تعني المواطن او ساكن المدينة. ولفظة الحضارة في مفهومها الحديث استحدثها جماعة العقلانيين Rationalists في القرن الثـــامن عشر وعلى رأسهم الكاتب الساخر فـــولتير Voltaire [١] .

وفي القرنين التاسع عشر والعشرين كتب كثير من المؤرخين والفلاسفة عن الحضارة وماهيتها ومقوماتها ، فنجد المؤرخ (توماس جونز Thomas Jones) في كتابه « ضرورات الحضارة » يعدد اربعة اشياء يجب ان تتوفر حتى تنشأ الحضارة . وهذه الضرورات هي : (١) توفر السبل الصحية (٢) استغـــلال الموارد الطبيعية (٣) تقوية الروابط المـــنزلية (٤) ترويض القوى الجسمية والعقلية والنفسية .

اما المؤرخ (فيليب باغبي Philip Bagby) في كتابه « الثقافة والتاريخ »

---

١ – Carl Brinkmann, « Civilization », Encyclopedia of the Social Sciences, p. 527.

فقد عرف الحضارة بانها نوع من الثقافة لا ينشأ الا في المدن . وهو بذلـــك لا يختلف كثيراً عن المؤرخ (توماس جونز) اذ ان الضرورات التي عددها جونز لا تتوفر غالباً الا في مجتمع المدن . ولكن علم الاجناس الحديث Anthropology اثبت ان بعض المجتمعات التي لم تنشأ فيها المدن كقبائل البولونيز Polynesia وقبائل الهنود في اميركا الشمالية كانوا يتمتعون بدرجة وافرة من الحضارة ، اذ كانت عندهم لغات منتظمة وفنون عظيمة تتفق وامكاناتهم الطبيعية في ذلك الوقت ، كما كانت لهم منظمات اجتماعية وسياسية ودينية متطورة .

أما الفيلسوف (الفرد نورث هوايتهد Alfred North Whitehead)فيرى ان الحضارة تقوم اساساً نتيجة للافكار الفعالة ، وان هذه الافكار مبعثهـا الاقليات او الافراد او النخبة فهم لذلك يمثلون ركناً كبيراً في الحضارة . فهو بذلك لا يختلف كثيراً عن المؤرخين السابقين ، كما لا يختلف كثيراً عن المؤرخ الكبير (ارنولد توينبي A. J. Toynbee) لان الافكار الفعالة التي يعنيها (هوايتهد) هي التي يمكن ان تجد تطبيقاً عملياً في الحياة ، وكل ما وجد تطبيقاً عملياً ينعكس اثره على المجتمع ويصبح صورة لناحية من نواحي الحياة . ثم ان الافكار الفعالة قد تشمل كل ناحية من نواحي الحياة .

اما المؤرخ الكبير (توينبي Toynbee) في كتابه « دراسة في التأريخ » فلم يعرف ماهية الحضارة بل اكتفى بان اطلق عليها « الوحدة المعقولة للدراسة التأريخية » . ولكنه عالج نشوءها ونموها وتفككها . فالحضارة عنـــده تنشأ نتيجة للاستجابة الناجحة للتحدي الذي يواجهـــه المجتمع من المحيط الطبيعي والوسط الانساني ، وتنمو وتتفكك لنفس هذا السبب . فكل مجتمع امكنه ان يجابه التحدي على الصعيدين الطبيعي والانساني استطاع ان ينشىء حضارة ما ، وكل حضارة وليدة تستطيع ان تحول تحـــدي الطبيعة الخارجي الى تحد داخلي تستجيب له بنجاح يمكن لها ان تنمو وتتطور . اما تفكك الحضارة او موتها فهو نتيجة لفقدان الاستجابة الناجحة للتحدي الخارجي في حـــالة نشأة

الحضارة ، والتحدي الداخلي في حالة نموها وتتطورها . وهـــذه الاستجابة الناجحة يرجعها (توينبي Toynbee) الى عبقرية الافراد او النخبة من ناحية والى مدى استعداد المجتمع لتخطي القديم وتقبل الجـــديد من ناحية اخرى . فأينما كانت هناك عبقريات عاملة في مجتمع من المجتمعات وكلما كان المجتمع اقل تمسكاً بالقديم واكثر استعداداً لتقبل الجديد ، كانت الفرصة مواتية للحضارة لان تنشأ وتنمو وتزدهر .

اذن ، فالحضارة عند جميع هؤلاء الفلاسفة والمؤرخين تعني انعكاساً معيناً لمجموعة اعمال المجتمع ، رغم ان هؤلاء المؤرخين والفلاسفة تبـاعدوا قليلاً او كثيراً في مقومات هذه الاعمال . فالمدن او الافكار العاملة او الاستجابة الناجحة لتحدي الطبيعة ، كلها عوامل تتداخل وتتشابك لتنتج عملية معقدة تعرف بالحضارة . « فالحضارة ، كالحياة ، شبكة متصـــلة العرى والوشائج ، وسلسلة متماسكة من الافعال والانفعالات ، ومن العوامل والمظاهر » . (١)

وليس ادل على تعقد هذه العملية من تعريف الدكتور (جيمس روبنسون James Robinson) للحضارة في مقال له في دائرة المعارف البريطانية حيث قال : « دائرة المعـارف نفسها تصف لنا معنى الحضارة لانهـا تحوي منجزات الانسان في جميع مرافق حياته » . (٢)

مظاهر الحضارة وقوامها :

لم يختلف الفلاسفة والمؤرخون في مظـــاهر الحضارة بقدر ما اختلفوا في مقوماتها . فمظاهر الحضارة جلية واضحة تتمثل للعين في كل وجه من وجوه الحياة من لغة وكتابة وآداب وفنون وعلم وفلسفة ودين ومن منتجات مادية وعادات اجتماعية وانظمة وقوانين وغيرهـا من مظاهر الحيـاة المختلفة . فكلما

---

١ – قسطنطين زريق ، في معركة الحضارة ، ص ١٠٩ .

٢ – Encyclopedia Britannica, Ed. Vol. V. p. 824.

ابدع المجتمع في هذه الاوجه وغيرها اتسمت انظمته بالحضارة .

أما مقومات الحضارة فقد تباين الفلاسفة والمؤرخون فيها . فمنهم من ارجعها الى مظهر واحد من هذه المظاهر كالنظم الاقتصادية السائدة في المجتمع كما نجدها عند الماركسيين أو العقائد الدينية كما نجدهـــا عنـــد (اوغست كونت Auguste Comte) او الاتجاهات الفكرية أو النظم العائلية والعادات والتقاليد كما نجدها عند الآخرين . فكل منهم يجعل واحداً من هذه المظاهر الأساس الذي يقوم عليه كل وضع آخر .

وقد رأينا أيضاً من يجعل المدن أو الافكار الفعالة اساس الحضارة وقوامها الوحيد . ومهما يكن من قول فنحن ندرك ان تعقد الحياة وتشابكها لا يسمح بارجاع جميع أحداثها الى عامل واحد أو سبب معين . فلا بد من ان تتعاون جميـــع العوامل أو أكثرها لتنتج هذه العملية المعقدة — الحضارة . فـــلا يمكن ان نقول ان النظم الاقتصادية هي التي تشمل كل شيء في الحضارة رغم اهميـــة هذه النظم في عملية الحضارة لان هذه النظم هي نتيجة تطور مستمر قوامـــه التفاعل بينها وبين النظم الاجتماعية الأخرى .

هل الحضارة واحدة أم عملية متعددة ؟

ان بعض المؤرخين يعتقدون ان الحضارة خيط واحد يمتد في العـــالم كله ، وانها تنتقل من مكان الى مكان . ولكننا نجـــد ان معظم المؤرخين والفلاسفة يؤمنون بتعدد الحضارات وقد استطاعوا ان يتبينوا على الاقل ست حضارات كبيرة في التاريخ .

ان وجود ست حضارات كبيرة في التاريخ يتميز بعضها عن بعض في مجموع منجزاتها لينفي الزعم القائل بان الحضارة خيط واحد يمتد في كل العالم ، ثم ان الحضارة تعتمد في منجزاتهـــا على اشياء تختلف من مكان الى مكان كالطبيعة الجغرافية والنظم الاجتماعية والدينية ، فلذلك لا يمكن القول بان الحضارة المصرية

القديمة انتقلت بجوهرها الى بابل او اشور او ان الحضارة اليونانية انتقلت بكاملها الى الرومان ، لان كل حضارة من هـــذه الحضارات تتصف بمقومات اساسية تجعلها تختلف جذرياً عن الحضارات الاخرى . وقـــد لاحظ ذلك الفيلسوف المؤرخ (اوزوالد شبنجلر Oswald Spengler) وجعل لكل حضارة رمزاً اولياً تنبثق منه ويسبغ عليها جميع اشكالها ومظاهرها فيجعلها تختلف تمـام الاختلاف عن الحضارات الاخرى .

غير ان (سبنجلر Spengler) قد تطرف في نظريته هذه لان الحضارات رغم اختلافها تتداخل بعضها في بعض ، ونجد ان عملية التفـــاعل والاقتباس واسعة النطاق بين الحضارات كما حدث بين الحضارة العربية والفارسية والحضارة الرومانية واليونانية وكما نجد بين حضارات العالم اليوم والحضارة الغربية الحديثة . ولكن ليس معنى ذلك من جهة اخرى ان حضارة ماتقتبس برمتها من قبل حضارة اخرى وانما تقتبس فقط بعض المقومات او المظاهر من تلك الحضارة التي تجـــد استجابة في وسط الحضارة المقتبسة .

هل الحضارة الغربية هي حضارة اليوم ؟

ان معظم المؤرخين الحديثين يعتبرون الحضارة الغربية الحضارة الوحيدة في العالم وان جميع الحضارات الاخرى فروع واجزاء من هذه الحضارة الضخمة . فلا غرو ان يكون ما الف من كتب في الحضارة الغربية اضعاف اضعاف ما الف في مفهوم الحضارة عامة او اي حضارة اخرى . ولا غرو ان قلنا ان معظم المؤرخين الغربيين استقوا مفهومهم عن الحضارة من خلال دراستهم للحضارة الغربية في الاكثر .

هذه النظرة البطليموسية . [1] للحضارة الغربية تأتي في طغيان العلم والتقنية

---

١ ــ النظرة البطليموسية الفلكية تعتقد ان الكواكب ، ومن ضمنها الشمس تدور حـــول الارض ــ فالحضارة الغربية هي الارض وبقية الحضارات الكواكب .

(التكنولوجيا Technology) في العالم ، وتفرد الحضارة الغربية بهما . اننا لا ننكر ان الحضارة الغربية يميزها العلم والتقنية ، ولكن هـــل هذان هما اساس الحضارة ؟ فان كانا كذلك فنستطيع ان نقول ان الحضارة الغربية الحديثة تتميز ، فيما تتميز به ، بالتخلي عن القيم الاخلاقية والدينية التي كانت تتسم بها طوال تاريخها المديد. فالمتتبع لتاريخ الحضارة الغربية يجد ان الدين والكنيسة لعبا دوراً كبيراً في تاريخ تلك الحضارة . فقد انتجت القرون الوسطى والعصور التي تلتها كثيراً من القساوسة والقديسين أمثـال (القديس اغسطينوس St. Augustine) و (القديس توماس الاقويني St. Thomas Aquinas) اللذين كان لهما كبير الاثر في تكييف الحضارة الغربية بكتاباتهما الدينية الفلسفية . ولكننا نتساءل عن الفلاسفة والعظماء الدينيين الذين ظهروا في القرون الحديثة للحضارة الغربية . ايعني هذا ان الدين والاخلاق لم يعودا يمثلان ركناً هاماً من اركان الحضارة الغربية ؟! ولكن الدين والاخلاق اجزاء مكملة للانسان عاشا معه في بدائيته وتطورا معه في بداية حضارته فصارا ركناً في ثقافته قبل ان يتعرف على الصناعة والقدرة التقنية Technology .

والحضارة الغربية تتميز ايضاً بالفردية ، وتحلل الروابط العائلية ورابطة الدم. فهل كانت الحضارة الغربية تتسم بهذا الطابع في ظل تاريخها القديم ؟!

اننا لاننكر مبدأ التغير في الدين والاخلاق والروابط الاجتماعية ولكننا لا نرضى ان يبنى مفهوم الحضارة على اساس او اساسين لاننا نعلم ان الحضارة هي مجموع منجزات الانسان في شتى الوجوه .

ولئن تخلت الحضارة الغربية عـن الدين والاخلاق ، وانحلت الروابط الاجتماعية فيها ، وجنحت الى الفردية المطلقة ، فانها لا تزال نوعاً من حضارات العالم الموجودة الان ، ولكنها ليست الحضارة الوحيدة .

كيف نبني حضارتنا :

بعد ان جلونا مفهوم الحضارة العام يسهل علينا ان نعرف كيف نبني حضارتنا بين حضارات الامم . وبناء الحضارة كما قال الدكتور زريق : « انما هو الغاية التي تنتهي اليها — او التي يجب ان تنتهي اليها — جميع ما نبذل من جهود ، ونرسم من خطط ومشروعات ، ونقيم من منشئات ومؤسسات [1] » . فما هي اذن غايتنا وما هي متطلباتنا في سبيل هذه الغاية ؟

اذا نظرنا الى العالم اليوم استطعنا ان ندرك مطالبنا لبناء حضارتنا ، وهذه المطالب لا نجري وراءها لمجرد التقليد الاعمى لمنجزات الحضارات الاخرى ، ولكن لانها تمثل تحدياً سافراً لوجودنا على الارض ولانها من جهة اخرى ضمانة لاستمرارنا في الحياة نظراً لتعقد مشاكلنا التي تمثل خطراً كبيراً على علاقاتنا بالامم الاخرى .

وليس افصح عن مطالب الشعوب العربية لبناء حضارتها من كتاب الاستاذ الدكتور قسطنطين زريق « في معركة الحضارة » الذي عدد فيه تحديات الحضارة لهذه الشعوب . وهذه التحديات تتلخص في ان الشعوب العربية يجب عليها ان تشيع بين الافراد ايماناً كبيراً بضرورة العمل لبناء الحضارة ، وهذا الايمان او « التوق الحضاري » يجب ان يشيع بين جميع الافراد ، المتعلمين منهم وغير المتعلمين . كما يجب ان يشيع ايمان آخر هو ايمان بالعقل والسعي وراء الحقيقة . فالايمان هو بداية الانطلاق من التخلف الحضاري ، والايمان بالعقل يتبعه ايمان بالعلم ونقد الذات ومحاسبة النفس واعداد الذهنية المتفتحة التي تنمي الثروات الطبيعية والبشرية .

نعم ، اننا في حاجة الى ايمان عميق كايماننا بالله وقدرته ، ايمان يتغلغل في داخل نفوسنا ويدفعنا للعمل والسعي وراء الحقيقة من خلال العقل . ولكن

---

١ ـ قسطنطين زريق ، هذا العصر المتفجر ، ص ٥٧ .

ليست تلك هي تحدياتنا في معركة الحضارة فحسب وانما هي تحدياتنا في معركة الوجود او العدم لان الحضارة اليوم اصبحت مرتبطة ارتباطـــاً وثيقاً بمعركة البقاء فـ « لا حضارة بلا بقاء ولا بقاء بلا حضارة » (١)

خـــاتمة :

ماذا توضح لنا فلسفة الحضارة ؟ انها تظهر لنا جلياً ان الحضارة هي مجموع منجزات الانسان في شتى الوجوه ، كالقدرة التقنية والابداع الفني او الخلقي ، ولكنها في الواقع اكثر من مجموع المظاهر والمقومات لان الحضارة يجب ان تفصح عن مفهوم عام للوجود — مفهوم الانسان وعلاقته بالطبيعة وما وراء الطبيعة . والقيمة الذاتية للحضارة لا تعدد الا من خلال هـــذا المفهوم لان الحضارة التي هي خلاصة المكاسب في سبيل الحياة المتحررة لا بد لها في سبيل تحرر الانسان من قيوده الطبيعية وسيطرته الفعلية على هذه القيود من استغلال لموارد الطبيعة واستقلال من سيادة الانسان على الانسان سواء من داخل المجتمع او خـــارجه لان المجتمع بذلك « يغدو اقوى واثبت واشد ابداعاً بقدر مـــا يتحول النظام السائد فيه من الغرض الخارجي الى التكون الداخلي أي بقدر ما يصير النظام انتظاماً » (٢) .

وتوضح فلسفة الحضارة لنا أيضـــاً ان الحياة الانسانية متشابكة متعقدة كعملية حضارية ومتباعدة متنافرة احياناً ومتشابهة متداخلة احياناً اخرى ، فلذا لا يصح القول بأن جميع الحضارات تنتظم سلكاً واحداً هـــو التطور البشري الشامل او كما قال (هيجل Hegel) بحضارة انسانية واحدة تتقدم في مراحل تبلغ منتهى تطورها في المرحلة الحرمانية . فالحضارات مختلفة ولكن التداخل والتفاعل والاقتباس بينهـــا موجود يضعف ويقوى حسب الظروف

---

١ ـ نفس المرجع ، ص ٨٠

٢ ـ قسطنطين زريق ، في معركة الحضارة ، ص ١١٦

والملابسات والحاجات الانسانية .

والقول بحضارة انسانية واحدة يفترض القول بانسانية واحدة، الشيء الذي سيظل مثالا عالياً يحلم به العالم ويهفو لتحقيقه – الشيء الذي لن يتم ، اللهم الا اذا خضع العالم كله لارادة انسانية واحدة تمنعه من الانزلاق في موارد الهلاك لان الحضارة اليوم ، كما قلنا سابقاً ، اصبحت مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمعركة الفناء أو البقاء .

كما لا يصح القول بحضارة انسانية واحدة ، لا يصح القول بان جميع الحضارات انتشرت من مركز واحد او من حضارة واحدة كما ادعى بعض علماء المذهب الانتشاري Diffusionism فجعل بعضهم مبعثها وادي النيل والبعض الآخر ما بين النهرين وآخرون منطقة بحر قزوين وغيرها من اماكن الحضارات القديمة . فالحضارات متعددة ، تتميز عن بعضها البعض في بعض مظاهرها ومقوماتها وقيمها الذاتية ، ولكنها بالرغم من ذلك كله تتداخل وتتفاعل على نطاق واسع خصوصاً في « هذا العصر المتفجر » .

المراجع :

١ – الدكتور قسطنطين زريق ، **في معركة الحضارة** ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٦٤ .

٢- A. J. Toynbee, A Study of History, Oxford University Press, **1962**, (Abridged edition by D. C. Somervell).

٣- James Harvey Robinson , « Civilization » , Encyclopedia Britannica, Vol. V. P. **8245**.

٤- Carl Brinkmann, « Civilization » , Encyclopedia of the Social Sciences, Vol. III. P. **525**.

٥- Thomas Jesse Jones, Essentials of Civilization.

٦- Philip Bagby, Culture and History, University of California Press, 1959.

٧ – الدكتور قسطنين زريق ، **هذا العصر المتفجر** ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٦٣ .

٨- Victor Lowe & Others, Whitehead and the Modern World, Boston, 1950.

٩- John Dewey, Philosophy and Civilization, New York, 1931.

مشاكل التنمية

في البلاد المتخلفة اقتصادياً

صالح محمد عثمان

إقتصاد ـ قسم الدراسات التخصصية الجامعية

تواجه البلاد المتخلفة اقتصادياً مشاكل عديـــدة في سبيل تحسين المستوى المعيشي لافرادها. وتختلف هذه المشاكل في طبيعتها وحدتها من بلد لآخر ولكن اهمها تعاني منها كل البلاد المتخلفة على اختلاف اسباب الحياة فيها . وهذه المقالة، على قصرها ، تنقسم الى شقين . يعالج الاول منها بعض المشكلات الاقتصادية والاجتماعية التي تعوق النهوض الاقتصادي لتوفير حياة أفضل للشعوب المتأخرة. أما القسم الثاني فهو عرض موجز لخطـــة السودان العشرية للتنمية الاقتصادية والاجتماعية ٦٢/٦١ — ٧١/٧٠ وهذه الخطة هي أول محاولة لتوجيه الاقتصاد السوداني بقطاعيه العام والخاص لتحقيق مرامي اقتصادية واجتماعية معلومة وفي أجل موقوت .

عملية تنمية المجتمع عملية معقدة لا بد ان تتكاتف فيها كل العوامل الاقتصادية والاجتماعية لهذا فان الدور الذي يقوم به علماء النفس والاجتماع لا يقل عما يقوم به علماء الاقتصاد . فعـــلى هذين الفريقين من العلماء تعبئـــة القوى الاجتماعية والاقتصادية لصالح تنمية المجتمع . يساهم علمـــاء النفس والاجتماع بتقريرهم عن

مدى تخفيض الحاجيات الاقتصادية في ظل النظم والتقاليد الاجتماعية القـــائمة والى أي مدى تحتاج هذه النظم الى تغيير وكيفية تغييرها حتى تؤدي العوامل الاجتماعية دورها الكامل في عملية التنمية .

وأول ما يحظى باهتمام علماء الاجتماع هو التركيب الاجتماعي . ولمـــا كانت البلاد المتخلفة تعتمد اعتماداً كبيراً على الزراعة والرعي فلا بد من وجود الاقطاع والتعصب القبلي والاقليمي . وهذه بلا شك تضر بعملية التنمية مما يحتم الاصلاح الزراعي لتفتيت الاقطاع وتقوية الشعور بالوحدة الوطنيـــة لمحو التعصب القبـــلي وانصهار الاقليمية في بوتقة الوطن الكبير . وثاني مـــا يهتم به الاجتماعيون هو المعتقدات التي تكيف حياة الناس وأقوى هـــذه المعتقدات – بلا ريب – هو الدين . وتغيير الاديان في المجتمعات لا هو مستحب دائمـــاً ولا هو بالامر اليسير الهين. ومهمة علماء الاجتماع في هذا الصدد تتمركز في تخليص المجتمع من الشرور التي يرتكبها بعض رجال الدين باسم الدين بما في ذلك من تسخير وهيمنة على طاقات الناس. والدين سلاح خطير في مجتمع يسيطر عليه الجهل والفقر والمرض. فالتعليم عدو الاستغلال بكافة صوره وابعاده . وهذا يبرر اهتمام الدول المتخلفة بالتعليم اهتماماً بالغاً .

وثالث ما يهتم به الدارسون للمجتمعات هو نظام الحكم فيها من الاستقرار وتجاوب المواطنين مع النظام وثقتهم فيه . فالدول المتخلفة هي حديثة العهد بالاستقلال وانظمة الحكم فيها موروثة عن البـــلاد التي كانت تحكمها . ونسبة لاختلاف الظروف بين كل بـــلد وآخر فلا بد ان يكون لكل بلد نظامه في الحكم . ومهمة رجال الاجتماع والعلوم السياسية في هذا الصدد هي ايجاد نظام للحكم يتمشى مع الظروف الراهنة على ان يكون قابلاً للتطور بتطور المجتمع . وايجاد النظام المـــلائم للظروف الاجتماعية ممكن من الناحية النظرية ولكن وضعه موضع التطبيق أمر جد عسير .

ونصل الآن الى آخر ما يهتم به علماء الاجتماع في هذه السلسلة وهـــو خلق

وتقوية الشعور لدى كل فرد من أفراد المجتمع ليعمل من أجل حياة أفضل راضياً بما يلاقي من تضحيات كالرحيل عن مسقط الرأس او تحديد النسل من أجل غد أرغد لاولاده ووطنه . وعنصر التضحية هام جداً في مراحل النمو الاقتصادي الاولي .

أما المشكلات الاقتصادية والتي تميز البلاد المتخلفة وتشغل بال الاقتصاديين فعديدة وسأكتفي بذكر أربع :

أولاً : صعوبة تنقل وسائل الانتاج وخاصة في القطاع الزراعي – وهو عماد الاقتصاد في البلاد المتخلفة كما ذكرنا سالفاً – حيث تكثر العطالة المقنعة . ولا يرجع هذا الى عدم توفر المواصلات وحسب بل هناك الجمود الاجتماعي (القبلية) والجغرافي (الاقليمية) والمهني (الحرف والصناعات اليدوية) الشيء الذي يجعل مرونة عرض عوامل الانتاج قليلة فلا يحدث تغيير كبير في الانتاج استجابة لتشجيع الاسعار والدخل . ولتذليل هذه العقبات – زيادة على ما أشرت اليه آنفاً – لا بد من زيادة المام عوامل الانتاج بالفرص السانحة بالاضافة الى تحسين وسائل النقل بربط البلاد بشبكة من المواصلات. ويعرف الاقتصاديون هذه العقبات بعيوب السوق لعدم تجاوبها تجاوباً كاملاً مع ظروف العرض والطلب .

ثانياً : تعاني البلاد المتخلفة من الدورات الاقتصادية السيئة التي لا تقوى اجهزتها الاقتصادية على تفاديها . تبدأ هذه الدورة من انخفاض المقدرة الانتاجية التي تسبب انخفاض الدخل الحقيقي مما يجعل متوسط دخل الفرد الحقيقي بسيطاً لدرجة يتعذر معها الادخار . وقلة الادخار تقود الى انخفاض رأس المال ومن ثم ينخفض الاستثمار وبالتالي تتناقص المقدرة الانتاجية وهكذا دواليك . فالعجز في استغلال الموارد الحقيقية لقلة الاستثمار بالاضافة الى انخفاض المقدرة الانتاجية هما أساس فقر الدول المتخلفة .

ولتخفيف حدة هذه الدورات السيئة لا بد من الادخار لتنمية رأس المال

الوطني ، والركون الى رأس المال الاجنبي على ان يستثمر في استغلال الموارد الطبيعية وخاصة التي تقع في قطاع الصادرات .

ثالثاً : تشكو البلاد المتخلفة من العجز الدائم في ميزانها التجاري . ويعود هذا الى قلة صادراتها واعتمادها الى حد كبير على الواردات في استهلاكها . وهذا العجز يعني عدم توفر النقد الاجنبي اللازم لمشروعات التنمية . والتغلب على هذه العقبة يحتم التقليل من الواردات باقامة الصناعات الوطنية للاستهلاك المحلي والتصدير اذ امكن ، بالاضافة الى زيادة صادراتها . وعلى القائمين بأمر التنمية ان يوفقوا بين الاستثمارات التي تأتي أكلها سريعاً وتلك التي يحين قطاف ثمارها بعد زمن طويل نسبياً .

رابعاً : تشكو البلاد المتخلفة من ازدياد السكان بسرعة تمتص كل الجهود في سبيل توفير حياة أفضل ، فلا بد ان يزيد معدل النمو الاقتصادي على معدل زيادة السكان بقدر معقول يجعل آثار التنمية محسوسة في مستوى الافراد . وعلى الافراد واجب وطني عظيم يحتم عليهم تنظيم اسرهم لتحسين نوعية النسل لا كميته . ولا يتأتى هذا الا اذا شعر المواطنون بضرورة تحسين مستواهم المعيشي وعظم مسئولية تربية الابناء تربية حسنة .

يعاني السودان من المشكلات التي تقدم ذكرها في القسم الاول من هذه المقالة . وقد حاول القائمون بأمره — ولأول مرة — وضع خطة شاملة للتنمية الاقتصادية والاجتماعية تمتد من عام ١٩٦٢/٦١ الى ١٩٧١/٧٠ [١] . وفي اثناء اعداد هذه الخطة لم تقف الدولة مكتوفة الايدي بل أفردت ميزانية خاصة اسمتها ميزانية التعمير لانجاز بعض المشاريع الحيوية في البلاد . والخطة في جملتها تمتاز بالاعتدال وتعتمد الى حد كبير على رأس المال الوطني كما انها تقر مبدأ الاقتصاد المختلط . وفي هذا العرض الموجز للخطة سأشير الى خصائص الاقتصاد

---

١ ـ تبدأ السنة المالية في السودان اول يوليو (تموز) من كل عام .

السوداني قبل تنفيذ الخطة كي تأخذ الأهداف التي ترمي اليها الخطة ابعادهـــا الصحيحة . كما انني سأبرز الدور الذي سيقوم به كل من القطاع الخاص والقطاع العام لتحقيق هذه الاهداف .

وتتلخص خصائص اقتصاد السودان فيما يلي :

أولا : دخل قومي منخفض بلغ متوسط نصيب الفرد منه ٢٥ و ٢٩ جنيهاً سودانياً في عام ١٩٦١/٦٠ . وانخفاض الدخل هـــذا يجعل القدرة على الادخار والاستثمار ضئيلة جداً .

ثانياً : ما زالت هناك مجتمعات تقليدية في جنوب البلاد وشرقها وغربهـــا تعيش عيشة الكفاف . والجدول رقم (١) يبين ان الجزء التقليدي من الاقتصاد الذي يعيش عليه السواد الأعظم من السودانيين يسهم فقط بما يزيد قليـــلاً على نصف الدخل القومي . وهذا يعني ان متوسط دخل الفرد في هـــذه المجتمعات ضئيل جداً لدرجة تدعو الى الشفقه والرثاء .

الجدول رقم (١)

نمو الدخل القومي الأجمالي والسكان

١٩٥٦/٥٥ - ١٩٦١/٦٠

	٥٦/٥٥	٥٧/٥٦	٥٨/٥٧	٥٩/٥٨	٦٠/٥٩	٩٦١/٦٠
١ ـ الدخل القومي الاجمالي (مليون جنيه سوداني)						
أ ـ الجزء التقليدي من الاقتصاد	١٦٠/٧	١٦٤/٩	١٧٠/٥	١٧٤/٨	١٨١/٦	١٨٧/٢
ب ـ الجزء الحديث من الاقتصاد	١٢٣/٥	١٤٩/٧	١٤٠/٩	١٤٦/٩	١٦٦/٢	١٧٠/—
د ـ كل الاقتصاد	٢٨٤/٢	٣١٤/٦	٣١١/٤	٣٢١/٧	٣٤٧/٨	٣٥٧/٢
٢ ـ السكان (بالآلاف)	١٠/٣٦٥	١٠/٦٥٧	١٠/٩٥٨	١١/٢٦٧	١١/٥٨٥	١١/٩٢٨
٣ ـ معدل دخل الفرد (بالجنيهات)	٢٧/٤٢	٢٩/٥٢	٢٨/٤٢	٢٨/٥٥	٣٠/٠٢	٢٩/٩٥

المصدر : خطة السودان العشرية ، وزارة المالية والاقتصاد (بالانجليزية) ، ٢٥ ، ١٢ .

ثالثاً : تعتمد البلاد اعتماداً اساسياً على القطن في صادراتها ، ولا يقل نصيب القطن عن ٥٠ ٪ من جملة الصادرات .

رابعاً : الاعتماد الكبير على الاستيراد في السلع الاستهلاكية والانتاجية .

خامساً : ضآلة المعرفة التقنية .

والخطة ترمي الى نمو الدخل القومي بمعدل يزيد على معدل تكاثر السكان . وهذا يعني زيادة الانتاج كماً ونوعاً . والاحصاءات الاولى تشير الى ان جملة الاستثمارات في السنوات العشر كفيلة بان تزيد الدخل القومي بمقدار ٦٣ ٪ عما عليه عام ١٩٦٢/٦١ . اما معدل دخل الفرد فسيزيد بمقدار ٢٣ ٪ نسبة لزيادة السكان في هذه الفترة . وزيادة الانتاج تقتضي النهوض بالمجتمعات البدائية والتقليدية لخلق بيئة ثقافية واجتماعية تتناسب مع الحياة الاقتصادية الجديدة وذلك بتحسين الخدمات الاجتماعية واتساع رقعتها .

وتهدف الخطة ايضاً الى تشجيع الصادرات بادخال محاصيل نقدية جديدة حتى تتفادى البلاد ويلات الاعتماد على محصول واحد معرض للخطر من جوانب متعددة . وتشجع الخطة ايضاً قيام الصناعات التي تحد من الاستيراد لا سيما تلك التي تستعمل المواد الاولية التي ينتجها السودان . وتنويع المحاصيل وادخال الصناعات في البلاد يقتضيان مواصلة البحوث العلمية والتوسع فيها للوقوف على موارد البلاد الظاهرة والكامنة وامكانية الاستفادة منها حالياً ومستقبلاً . وقد جعلت الخطة التوسع في هذه البحوث هدفاً من اهدافها .

ولتحقيق هذه الاهداف خصصت الخطة دوراً للقطاع الخاص وآخر للقطاع العام . ففي خلال العشر سنوات يتوقع واضعو الخطة ان تبلغ مدخرات القطاع الخاص التي يستثمرها ١٩٦٢ مليوناً من الجنيهات . وامكانية هذا القطاع من تحقيق كل هذه المدخرات بالرغم من متوسط دخل الفرد المنخفض الذي اشرنا

اليه ترجع الى الفوارق الكبيرة في متوسط الدخل بين منطقة واخرى وبين قطاع وآخر . ففي منطقة الجزيرة ، مثلاً يزيد معدل دخل الفرد عن السبعين جنيهاً في العام . وهذا التفاوت في معدلات الدخل يجعل البعض قادراً على الادخار . كما ان نظرة واحدة الى الجدول رقم (١) تبين ان الجزء الحديث من الاقتصاد يزداد نصيبه في الدخل القومي عاماً بعد عام وهذا دليل على ازدياد نشاطه من ناحية وعلى انجراف بعض مرافق الاقتصاد التقليدي في نهر الاقتصاد الحديث الذي يقوم العاملون فيه بعملية الادخار اساساً .

والجـــدول رقم (٢) يبين تقسيم هـــذه المدخرات على اوجه النشاطات الاقتصادية الرئيسية بصورة تغني عن الشرح الا ان القـارىء يلاحظ الفرق بين جملة مدخرات القطاع الخاص وجملة الاستثمارات التي يختص بها الجدول المذكور. وهذا الفرق (٢٢٨,٤ – ١٩٦,٢ = ٣٢,٢ مليوناً من الجنيهات) لا بد ان يغطيه رأس المال الاجنبي الذي يقوم بتدبير الحصول عليه هذا القطاع .

الجدول رقم (٢)

جملة الاستثمارات ١٩٦٢/٦١ – ١٩٧١/٧٠ وتقسيمها

على قطاعات الاقتصاد

	ملايين الجنيهات			النسبة المئوية من المجموع
	الخاص	العام	المجموع	
١ - الزراعة بما فيها المواشي والاسماك والغابات	٣٠/-	٩٠/١	١٢٠/١	٢١
٢ - الصناعة بما فيها المرافق العامة الهندسة المدنية والتعدين.	٦٥/-	٤١/٩	١٠٦/٩	١٩
٣ - توزيع المواصلات	٣٢/-	٦٣/-	٩٥/-	١٧
٤ - الخدمات العامة بما فيها الاسكان والصحة العامة والتعليم والادارة العامة وغيرها	٦٠/-	٩٠/-	١٥٠/-	٢٧
جملة التوسع في الاستثمار	١٨٧/-	٢٨٥/-	٤٧٢/-	٨٤
٥ - الصيانة والاستبدال	٤١/٤	٥٢/-	٩٣/٤	١٦
جملة الاستثمار	٢٢٨/٤	٣٣٧/-	٥٦٥/٤	١٠٠

المصدر : خطة السودان العشرية (بالانجليزية) – وزارة المالية والاقتصاد – الخرطوم – ص ٦٥ .

اما استثمارات القطاع العام التي تمول من مدخراته فقد قدرت في الخطة بما يبلغ ٢١٩٫٧ مليوناً من الجنيهات السودانية . ودخل هذا القطاع يأتي جله من

الضرائب الجمركية عـــلى الصادرات والواردات ، والخدمـــات والسلع التي تتقاضى عليها اجراً او ثمناً الوزارات التي تقدمها . ويلاحظ القاريء ايضاً فرقاً (—/٣٣٧ — ٢١٩/٧ = ١١٧/٣ مليونـــاً من الجنيهات) بين مدخرات هذا القطاع ونصيبه في جملة الأستثمار الموضحة في الجدول رقم (٢) . وهذا الفرق تقوم بتغطيته ايضاً الرساميل الاجنبية قروضاً كانت او مساعدات لوجه الباري تعالى . والجدول يوضح — بما فيه الكفاية — نصيب كل من المرافق الأساسية في الاقتصاد من استثمارات هذا القطاع . وهنا لا بد ان نلاحظ ، ان تقسيم الاستثمار على النحو الذي هو عليه في الجدول رقم (٢) سيتوخى اهداف الخطة التي اشرنا اليها — ونلاحظ ايضاً ان نسبة رأس المال الاجنبي الى رأس المـــال الوطني المستثمرين في هذه الخطة لا تزيد عن ٢٨ ٪ . وفي رأي واضعي الخطة ان الاعتماد الكبير على رأس المال الوطني يكسب الاقتصاد قوة ومناعة يجعله قادراً على جذب الرساميل الاجنبية في المستقبل ، مما يجعل الخطة الثانية اكثر طموحاً .

ولكن نجاح الخطة يقتضي ، بجانب اختيار المشاريع المنـــاسبة وتوفير الاموال اللازمة لتنفيذها ، وجود جهاز اداري فعـــال . والجهاز الاداري في السودان بدأ يئن من ثقل المهام الملقـاة على كاهله والخطـة لم تدخل عامها الرابع بعد . ونجاح الخطة ايضاً رهين مـا يحدث لاقتصاد زراعي تلعب فيـه الظروف الطبيعية دوراً كبيراً ، وتهزه تقلبات الاسعار العالمية . واليوم والخطة تشارف نهاية عامها الثالث تعاني البلاد من ضائقة اقتصادية وهبوط في رصيدها من العملات الاجنبية . ولا بد ان تنعكس سبل الخلاص من هذه الضائقة على خطة التنمية من بعيد او قريب . وتسعى الخطة جـــاهدة للنهوض بالاقتصاد دون ان تحدث تضخماً ، ولكن هذا أمر عسير اذ ان غلاء المعيشة في ازدياد مضطرد كما تبين الاحصاءات . ومهما يكن الامر فالتخطيط ضرورة حتمتها قلة الموارد بالقياس

لحاجيات المواطنين . فان تعثرت الخطة في مرحلة من مراحلهـــا فلا مناص من اعادة النظر فيها من جديد حسب مقتضيات الظروف . وفي ختام هذه المقالة لا بد من ان يكبر المرء الجهود الضخمة التي استنزفها اعـداد هذه الخطـة الاولى التي اعتمدت لحد لا يستهان به على الحدس والتخمين حين تنعدم الاحصاءات التي يعول عليها . وقيمة هذا العمل الكبير لا تكمن – في نظري – في نجاحهـــا او اخفاقها بقدر ما تكمن في كونها أساساً متيناً لخطة قادمة .

تاريخ كاتب الشونة

بقلم : حسين عثمان شامي

كلية الآداب والعلوم : اللغة العربية وآدابها

كاتب الشونة هو احمد بن الحاج ابو علي الذي ولد في المسلمية (بين واد مدني والحصاحيصا) عام ١١٩٩ هـ كما ذكر ذلك في ص ٣٢ من تاريخه المنشور بعنوان « مخطوطة كاتب الشونة في تاريخ السلطنة السنارية والادارة المصرية » . ونكاد لا نعرف شيئاً عن مؤرخنا الا هذه الجمل المتفرقة في ثنايا كتابه والتي تناول فيها جزءاً يسيراً من معالم حياته . ففي سنة ١٢١٥ هـ حج والده الذي مات بعد حجه بسنة واحدة اي سنة ١٢١٦ هـ [١] . ونعرف ان لكاتب الشونة عماً اسمه الطريفي توفي سنة ١٢١٦ هـ [٢] . ومات له عم آخر سنة ١٢١٨ هـ وهو فقيه ابن فقيه كما قال اسمه احمد منور [٣] . وفي سنة ١٢٢٤ هـ ولد لكاتب الشونة ابن اسماه محمداً [٤] . وتوفيت والدة كاتب الشونة سنة ١٢٢٣ هـ [٥] . واشتغل كاتب الشونة في الديوان في الخرطوم سنة ١٨٢٤ م [٦] وانهى عمله فيه سنة ١٨٣٤ م . ولا ادري عن حياته شيئاً بعد هذا التاريخ .

---

١ – مخطوطة كاتب الشونة ص . ٤٤ ، نشرها الاستاذ الشاطر بصيلي عبد الجليل سنة ١٩٦١ م .

٢ – كاتب الشونة ، ص. ٤٥ .

٣ – كاتب الشونة ، ص. ٥٥ .

٤ – كاتب الشونة ، ص. ٦٥ .

٥ – كاتب الشونة ، ص. ٧٥ .

٦ – كاتب الشونة ، ص. ١١٤ .

وتاريخ كاتب الشونة صغير الحجم نسبياً تناول فيه دولة الفونج منذ ابتدائها في اوائل القرن السادس عشر الميلادي وانتهى كتابه في حدود سنة ١٨٣٨ م بعد ان تناول تناولاً يسيراً دولة الاتراك في ابتداء عهدها في السودان . واذن يؤرخ كاتب الشونة لفترة تزيد قليلاً على الثلاثمائة سنة اعتمد في تأريخها على مصادر متباينة مختلفة : اعتمد على السماع من الذين سبقوه وعلى ما رأى من حال الدولة السنارية في آخر عمرها وعلى ما رأى وشاهد في الفترة الاولى من حكم الاتراك في السودان . ولا يشير كاتب الشونة الى مصادر مخطوطة سبقته في تناولها لدولة الفونج ولكنه اطلع على كتاب الطبقات لود ضيف الله . يقول كاتب الشونة : «اما بعد فاني رأيت تواريخ للأقدمين في عدد سني الملوك السابقين، وأحببت ان اجمع الى ذلك شيئاً من ابتداء عمارة سنار المحروسة المحمية اجلها الله خالق البرية واذكر ما كان فيها ومن ملوكها وسيرهم المحمودة المرضية على ما سمعته الاذن وشوهد في آخر ملكهم بالأعين » .

« وسنذكر ذلك ان شاء الله تفصيلاً واجمالاً على حسب ما عرض على المسامع من غير ترتيب لأني لم أره مرتباً بل حكايات واردة ولم تخل من التقديم والتأخير والتبديل والتغيير . » (١)

أنشأ عمارة دونقس مدينة سنار في اول القرن العاشر الهجري أي في القرن العاشر الميلادي وكانت مدينة اريجي قد بناها حجازي بن معين قبل سنار بحوالي ثلاثين سنة كما يقول كاتب الشونة أي سنة ٨٧٠ هـ. (٢) ويرى كاتب الشونة أن الفونج (٣) قبل مجيئهم وتأسيسهم لسنار كانوا في منطقة تعرف بلولو

---

١ ـ كاتب الشونة ، ص . ٣ ـ ٤

٢ ـ كاتب الشونة ، ص . ٣١

٣ ـ أصل الفونج : هناك ثلاثة آراء حول اصل الفونج : الرأي الاول يقول ان اصلهم من الشلك ومن فرع في القبيلة اسمه (لو) وقد كانت هذه القبيلة تسكن جنوبي الكوة بقليل . وانفرد احد زعمائها بالحكم في سنار . وهذا الرأي يتزعمه الرحالة بروس الذي زار السودان سنة ١٧٧٢ م . والرأي الثاني ينادي به آركل وهو يقول ان اصل الفونج من دارفور ومن البرنو . والرأي الثالث يؤمن بأن أصل الفونج عربي ومن بقايا سلالة الامويين الفارين الى السودان عقب سقوط دولتهم سنة ١٣٢ هـ. (٧٥٠ م) . وهذا الرأي هو رأي ملوك الفونج انفسهم فانهم يفخرون بأصلهم الاموي العربي . ولكل فريق ادلته التي تؤيد ما يذهب اليه . راجع في اصل الفونج : ←

ثم انتقلوا بعدها الى جبل موية . وبالقرب من هذه المنطقة كانت توجد غابة تسكن فيها جارية اسمها سنار ومن ثم جاء اسم مدينة سنار . وقطع عمارة دونقس اول ملك معروف في دولة الفونج اشجار هذه الغابة وخاض غمار حروب ضد أناس يعرفون بالفنج يساعده في ذلك عبدالله القريناتي رئيس منطقة قرى شمال الخرطوم .

وأراد السلطان سليم التركي غزو سنار فأرسل له عمارة دونقس خطاباً يقول فيه : « اني لا أعلم ما الذي يحملك على حربي وامتلاك بلادي فان كان لأجل تأييد دين الاسلام فاني أنا وأهل مملكتي عرب مسلمون ندين بدين رسول الله . وان كان لغرض مادي فاعلم ان أكثر أهل مملكتي عرب بادية وقد هاجروا الى هذه البلاد في طلب الرزق ولا شيء عندهم تجمع منه جزية سنوية ».[1] فانصرف سليم عن غزو البلاد .

ثم ملك بعد عمارة دونقس ابنه عبد القادر حتى سنة ٩٥٠ هـ. وكانت مدته عشر سنين ، ومعنى ذلك أن حكم عمارة انتهى سنة ٩٤٠ هـ. ثم ملك بعد عبد القادر اخوه نايل حتى سنة ٩٦٢ هـ. وخلف نايل اخوه عمارة ابو سكيكين وامتد حكمه حتى سنة ٩٧٠ هـ. (١٥٦٢ م) . وفي هذه الفترة توفي عبدالله جماع ففوض عمارة حكم قرى الى عجيب بن عبدالله جماع . وبعد عمارة جاء دور دكني بن نايل الذي حكم الى سنة ٩٨٥ هـ. (١٥٧٧ م) وملك بعده اخوه ذورة أو دوكة الى سنة ٩٩٣ هـ. (١٥٨٥ م) . ثم جاء بعده طبل لغاية سنة

(أ) معالم تاريخ سودان وادي النيل للشاطر بصيلي ، ص. ٢٤ – ٣٠ .

(ب) The Fung Kingdom of Sennar by Crawford , pp **143 - 162**

(جـ) Fung Origin by Arkell in Sudan Notes and Records, Vol. XV pp. **201 - 250.**

١ ـ تاريخ السودان لنعوم شقير ، ٧٣/٢ ط ١٩٠٤ م.

٩٩٧ هـ. وملك بعده اونسا الى سنـــة ١٠٠٩ هـ (١٦٠٠ م) وخلف اونسا عبد القادر الذي امتد حكمه الى سنة ١٠١٣ هـ (١٦٠٤ م) . ثم جاء عدلان بعد عبد القادر وامتد حكمه الى سنة ١٠١٦ هـ (١٦٠٧ م) وكانت هذه الثلاث سنوات مليئة بالاضطرابات والحروب . فيها شق عجيب شيخ قرى عصا الطاعة فأرسل اليه عدلان جيشاً التقى بـــه في مكان يعرف بكركوج [1] بالقرب من الخرطوم . وانتهت الحرب بقتل عجيب وهرب اولاده الى الشمال — الى دنقلة . وملك بعد عدلان (بادية) بادي واستمر حكمه الى سنة ١٠٢٣ هـ (١٦١٤ م) وملك بعده ارباط لمدة طويلة استمرت الى سنة ١٠٥٢ هـ (١٦٤٢ م) وملك بعده بادي ابو دقن الذي حارب قبيلة الشلك وسار الى تقلى بعـد انتصاره على الشلك . وانتهى حكم بادي ابي دقن سنة ١٠٨٨ هـ (١٦٧٧ م) . وملك بعده ابن اخيه اونسا ولد ناصر وتفشت في عهده الاوباء والمجاعـــات وكان الناس مصابين بالجدري ويأكلون لحم الكلاب، وطال حكم ولد ناصر حتى سنة ١١٠٠هـ (١٦٨٨ م) . وجاء بعده بادي الاحمر وفي عهده عاد اولاد الشيخ عجيب الى محاربة ملوك الفونج ، فقد وفد اولاد الشيـخ عجيب في الف فارس الى منطقة سنار يريدون عزل بادي الاحمر الذي لم يكن معه سوى خمسة واربعين فارساً . ولا ادري لماذا كان مع الملك هذا العدد القليل الذي يذكره كاتب الشونة . من المحتمل أن تكون بقية جنده في معترك آخر ، وهل هناك معترك غـير هذا ؟ هذه مبالغة من كاتب الشونة الذي يقول ان هذا العدد القليل مع بادى الاحمر استطاع ان يهزم الالف فارس هزيمة نكراء ويطرد المعتدين الى خور العطشان .

واستمر حكم بادي الاحمر حتى سنة ١١٢٧ هـ (١٧١٥ م) وملك بعده ابنه اونسا الذي اظهر لاول مرة في تاريخ الفونج خـــلاعة وتهتكا وهوى للنساء والرجال على السواء ، واتى بكل فاحش وقبيح ولم يسكت الفونج على صنع

---

١ ـ لتعيين بلدة كركوج التي قتل فيها عجيب شيخ قرى راجع ص. ١٧٨ من كتاب
« The Fung Kingdom of Sennar, by Crawford »

مليكهم هذا فثاروا ضده وخلعوه سنة ١١٣٠ هـ (١٧١٨ م) وملك بعده نول وهو رجل عاقل حسن عادل كما يخبرنا كاتب الشونة وملكه لغاية سنة ١١٣٥ هـ (١٧٢٣ م) ثم جاء بعده ابنه بادي ابو شلوخ وهـــو « آخر الملوك اصحاب الشوكة ومنه انتهى الملك الصحيح وصار عـــادة » وكان بادي ابو شلوخ على عكس ابيه فاسداً في رأيه وهواه ، ويبدو انه كان صالحاً في مدة حكمه الاولى ولكنه طغى وتجبر اخيراً في شئون الدولة فقتل كثيراً من رجـــالات دولته وانشغل بالنساء والجواري . واجتمع اقطاب الناس الصالحون امثال محمـــد ابي اللكيلك في ذلك الزمن وهم الذين لم يقبلوا هذا الحيف والجور والانحراف عن الجادة في حكامهم ، وساروا الى سنار في جيش لجب لخلع هذا الملك الذي صعّر خده للناس فنزل من حكمه ذليلاً حقيراً سنة ١١٧٥ هـ (١٧٦١ م) قـال كاتب الشونة في تصوير حال مثل هذا الرجل « وأما الرجل الذي كان سبباً في الظلم فقد ضعف حاله وصار في ذلة » وان كان بادي فاسداً فقـد بلغت دولته عصرها الذهبي وحققت نهاية امجادها الحربية في الحرب التي خاضتها ضد الحبشة سنة ١٧٤٤ م (١١٥٧ هـ) . وذكر كاتب الشونة موضعين يقال ان الحرب بين الحبشة وبادي ابي شلوخ قامت فيهما وهما يموت وعجيب، كما يرجح كاتب الشونة ايضاً أن الحرب نشبت في موضع الزكيات وهذا هـو القول المتعارف في كتب التاريخ .وانتهت الحرب بانتصار جيش الفونج وفرح اهل سنار فأقاموا الولائم ونشروا الحرير ونصبوا الزينات في المسجد والسوق مدة سبعة أيام .

ويرى الاستاذ الشاطر بصيلي عبد الجليل في كتابه » معالم تاريخ سودان وادي النيل » ان للحرب عدة اسباب ظاهرها مقتـــل بادي الاحمر لدي رول مبعوث فرنسا الى ملك الحبشة سنة ١٧٠٥ م [١] . ويشك نعوم شقير في ذلك لان المدة طويلة بين التاريخين : تاريخ مقتل دي رول سنة ١٧٠٥ م وقيام الحرب الحبشية سنة ١٧٤٤ م [٢] . وقد قتل دي رول في زمن النجاشي تقلا هيمانوت

---

١ ـــ معالم تاريخ سودان وادي النيل ، ص. ٨٩

٢ ـــ تاريخ السودان لنعوم شقير ٢/٨١

والحرب الحبشية قامت في عهد النجاشي اياسو ويستبعد ان يثأر اياسو لحادثة قتل دي رول التي وقعت في عهد نجاشي سابق .

ونقطة اخرى جديرة بالاهتمام وهي أنه بعد عزل بادي ابي شلوخ على يد الشيخ محمد ابي اللكيلك زعيم الهمج الذين وفدوا من غرب السودان اصبح الحاكم السناري تحت رحمة ابي اللكيلك والهمج . وكان محمد ابو اللكيلك وزيراً ذا نفوذ عظيم في الدولة له حق تنصيب الحاكم او خلعه فهو الذي ملك الملك ناصر ابن الملك بادي سنة ١١٧٥ هـ وعزله بعد ثماني سنوات ونفاه الى قرية اسمها البقرة ولكن الحاكم المخلوع الب جنداً واراد قتل الوزير ابي اللكيلك وانتهت حربهما بقتل الحاكم المعزول .

ثم ملك بعده الملك اسماعيل سنة ١١٨٢ هـ (١٧٦٨ م) وحكم سبع سنين . وفي هذه المدة تغيرت سياسة الوزير ابي اللكيلك فسار سيرة العدل والسهر على مصالح الرعية فحمد الناس له ذلك ودعوا له بالبركة كما يذكر كاتب الشونة .

وبعد موت الشيخ محمد ابي اللكيلك سنة ١١٩٠ هـ انتقلت الوزارة او المشيخة الى ابن اخيه بادي بن رجب واستهل بادي بن رجب وزارته بخلع الحاكم السناري اسماعيل تولية عدلان . وفي عهد الاخير اغار الشكرية على اريجي سنة ١١٩٨ هـ (١٧٨٣ – ١٧٨٤ م) وخربوها وانتقل كثير من اهلها الى اماكن اخرى . قال كاتب الشونة يصف اريجي « وهي قرية كاملة الحسن والبنيان ، مليحة العمارة والتجارة ، ادبية في المأكل والمشرب ، وفيها اناس صالحون ومدارس علم وقرآن وفيها عجائب يحكيها من حضرها ، وكان ابتداء عمارتها قبل سنار بثلاثين سنة وهي سنة ٨٧٠ هـ فكانت مدة عمارتها ٣٢٨ سنة فسبحان الحي الذي لا يبقى الا ملكه » [٣] .

والملك عدلان هو اول حاكم سناري يقتل شيخاً من الهمج فقد استطاع ان

---

٣ ــ كاتب الشونة ، ص. ٣١

يقتل الشيخ رجب في حدود سنة ١٢٠٠ هـ وأغار الهمج بعد زمن قليل على سنار وقتلوا عدلان سنة ١٢٠٣ هـ (١٧٨٨ م) .

وعين الشيخ ناصر الملك طبل حاكماً على سنار وقتل طبل بعد زمن وجيز بالحلفاية . ثم ملك بادي وقتل ايضاً بالحلفاية ثم ملك الملك حسب ربه ومات بولد بان النقا . ثم ملك الملك نوار فأقام مدة وقتله الشيخ ناصر . ثم ملك الملك بادي ولد طبل وعزل بعد قليل . ولم يتعرض كاتب الشونة لتحديد مدد حكم هؤلاء الحكام لأن سنينهم « متدرجة في حكم الهمج ولم تظهر لهم مدة » [1] . وكان بادي هذا صغيراً حين اعتلى العرش ولا ندري السنة التي تولى فيها مقاليد الحكم كما اننا لا نعرف السنة التي عزل فيها واجلس مكانه رانفي ، وقد دبر مكيدة هذا الخلع الشيخ ادريس الذي تولى المشيخة او الوزارة سنة ١٢١٣ هـ يساعده في ذلك الشيخ كمثور شيخ خشم البحر .

وهذه الفترة مليئة بالاضطرابات والحروبات الداخلية . فقد قامت الحرب بين سنار والحلفاية . وانتهت بمقتل الشيخ عبدالله ولد عجيب حاكم الحلفاية . وقامت حرب العواليب سنة ١٢١٦ هـ (١٨٠١ — ١٨٠٢ م) بين الملك نمر والملك المساعد . واشتبك الشكرية في معارك مع البطاحين سنة ١٢١٧ هـ (١٨٠٢ م) وقتل في الحرب الشيخ أبو سن .

ونرجع الى سنار فنقول ان رانفي قتل وخلت الدولة من ملك عليها لفترة استمرت شهوراً . واعيد بادي ابن طبل مرة اخرى لكرسي الملك . وكان هذا آخر ملك في دولة الفونج التي سقطت سنة ١٨٢١ م في يد الاتراك .

---

١ — كاتب الشونة ، ص. ٣٨ .

قائمة بملوك سنار ومدة حكمهم كما جاءت في مخطوطة كاتب الشونة (١)

الحاكم	من - الى	مدة الحاكم بالسنوات
عمارة دونقس	٩٤٠ هـ	
عبد القادر	٩٤٠ - ٩٥٠ هـ	١٠
نايل	٩٥٠ - ٩٦٢ هـ	١٢
عمارة ابو سكيكين	٩٦٢ - ٩٧٠ هـ	٨٥
دكني بن نايل	٩٧٠ - ٩٨٥ هـ	٨
دورة (دوكة)	٩٨٥ - ٩٩٣ هـ	١٥
طبل	٩٩٣ - ٩٩٧ هـ	٤
أونسا	٩٩٧ - ١٠٠٩ هـ	١٢
عبد القادر	١٠٠٩ - ١٠١٣ هـ	٤
عدلان	١٠١٣ - ١٠١٦ هـ	٣
بادي سيد القوم	١٠١٦ - ١٠٢٣ هـ	٧
ارباط	١٠٢٣ - ١٠٥٢ هـ	٢٩
بادي ابو دقن	١٠٥٢ - ١٠٨٨ هـ	٣٦
اونسا	١٠٨٨ - ١١٠٠ هـ	١٢
بادي الاحمر	١١٠٠ - ١١٢٧ هـ	٢٧
اونسا	١١٢٧ - ١١٣٠ هـ	٣
نول	١١٣٠ - ١١٣٥ هـ	٥
بادي ابو شلوخ	١١٣٥ - ١١٧٥ هـ	٤٠
ناصر بن بادي	١١٧٥ - ١١٨٢ هـ	٧
اسماعيل	١١٨٢ - ١١٩٠ هـ	٨
عدلان	١١٩٠ - ١٢٠٣ هـ	١٣
اوكل	١٢٠٤ ؟	؟
طبل	١٢٠٤ ؟	؟
بادي	١٢٠٤ ؟	؟
حسب ربه (٢)	١٢٠٤ ؟	؟
نوار	؟	؟
بادي ولد طبل	؟	؟
راتفي	؟	؟
بادي ولد طبل (٣)	١٨٢١ م	؟

١ - تستطيع ان تراجع قوائم اخرى في (معالم تاريخ سودان وادي النيل) للشاطر البيصيلي ص. ١٠٢ ، وبتاريخ السودان لنعوم شقير ٩٧/٢

٢ - توفي سنة ١٢٠٤ هـ كما في تاريخ ملوك السودان ص - .

٣ - اعيد مرة ثانية لكرسي الحكم.

الوزارة في قبيلة الهمج :

أ — اول وزير هو محمد ابو اللكيلك الذي توفي سنة ١١٩٠ هـ وخلف عدة ابناء منهم رجب وناصر وادريس وعدلان وحسين وقاسم وعبد العزيز ونصر وابراهيم وعلي .

ب — المشيخة انتقلت الى يد بادي بن رجب وهو رجـــل شجاع حارب الحلنقة في الشرق وكان عادلاً منصفاً . قتل سنة ١١٩٤ هـ وله من الاولاد كتوا ورجب وصباحي وادريس ومحمد وموسى .

ج — ثم شاخ (أي تولى المشيخة) بعـده الشيخ رجب بن الشيخ محمد وقتل الشيخ رجب في رأس المئتين كما يقول كاتب الشونة بدون تحديد لذلك . وله من الاولاد محمد ودوكة وبادي وحسن وابراهيم وعلي وكتوا .

د — ثم شاخ بعده الشيخ ناصر ولد محمود وفي عهـــده تفرق الهمج ولكنهم سرعان ما توحدوا من جديد وانتصروا على الملك السناري انتصاراً باهراً . وكان الشيخ ناصر رجل لهو ومتع يخرج الى الصيد حاملاً معه الخمور ويحتفل احتفالات فخمة كأنها أعياد . وكان سخياً كريماً لرعيته . وقتل الشيخ ناصر سنة ١٢١٣ هـ لثورته على الحكم السناري قتله صباحي ولد بادي .

هـ — وتولى المشيخة بعده ادريس سنة ١٢١٣ هـ وكان اول عمل قام به هو خلع الملك بادي وتولية الملك رانفي . وقام ايضـــاً باعداد جيش لمحاربة الشيخ عبدالله ولد عجيب حاكم الحلفـــاية وقد تمكن ادريس من قتل الشيخ عبدالله سنة ١٢١٥ هـ .

و — وفي سنة ١٢١٨ هـ تولى الوزارة عدلان اخو الشيخ ادريس وانصرف الشيخ عدلان الى الملاهي والنساء فقتل في نفس السنة .

ز — وشاخ بعده الشيخ محمـــد وُلد رجب وكان ينافسه ولد ناصر والشيخ كمتور . وقتل الشيخ محمد ولد رجب في سنة ١٢٢٣ هـ كما يبدو لي .

حـ – وتسلم محمد ولد عدلان زمام السلطة في طول الدولة السنارية وعرضها فصار الآمر الناهي ولم يعر الملك بادي اهتمامـــاً . وكانت الاضطرابات والفتن الداخلية لم تنته واظنها كانت في شدة غليانها وانفجارها عندما وقف اسماعيل بجيشه التركي على ابواب الدولة السنارية .

وينتقل كاتب الشونة الى الحديث عن الادارة المصرية في السودان ويتناول باختصار عملية الفتح المصري وسقوط الدولة السنارية سنة ١٨٢١ م . ويتحدث عن الادارة في عهد عثمان بك ومحو بك وخورشيد بك وذلك الى سنة ١٨٣٨ م وبذلك ينتهي تاريخ كاتب الشونة الذي ابتدأه بتأسيس دولة الفونج في سنار على يد الزعيم عمارة دونقس .

وفي أول صفحة نقرأها لكاتب الشونة عن الحكم التركي في السودان نشعر أن المؤلف يدين بالولاء والتأييد للأتراك ولم لا ؟ وقـــد وجد عملاً مناسباً له في دواوين الحكومة التركية في الخرطوم وهم على حد قوله سحائب الرضوان التي تهمي ولا تنقطع وهم بشائر السعد والامـــان . وهم الذين أزالوا طغيان الفونج وابدلوا الجور بالعدل والاحسان . ولكن كاتب الشونة لا يرضى عن الجرائم والفظائع التي ارتكبها الدفتردار وجنوده بعد مقتل اسماعيـــل باشا في شندى سنة ١٨٢٣ م وهو ايضاً يشكو من الغلاء وتفشي الامراض .

يؤمن كاتب الشونة بأن اسماعيل باشا مات حرقاً في شندى عقب الوليمة التي خدعه بها الملك نمر ومساعده . ويشك الاستاذ الشاطر بصيلي في هـــذه الحادثة فهو لا يعتقد ان اسماعيل مات خنقاً او حرقاً او انـــه مات بايعاز من الملك نمر [1] . وفي رأيي أنه من الصعب نقض روايـــة كاتب الشونة – وهي الرواية التي تناقلتها كتب التاريخ بعد ذلك – لأن كاتب الشونة كان معاصراً

---

١ – راجع كتاب (معالم تاريخ سودان وادي النيل) للاستاذ الشاطر بصيلي عبد الجليل ، ص – ١٣٠ وما بعدها .

لهذه الاحداث التي تمر أمام عينيه ، ولعل مخطوطة كاتب الشونة هي أقـــدم وثيقة تاريخية تصلنا في هذا الموضوع .

ولا بد من أن نشير هنا الى الناحية الصوفية والفقهية في تاريـــخ كاتب الشونة . وقد كان التعليم قائمـاً على اساس قوى من الدين والتصوف الاسلامي وكان علماء السودان في هذه الفترة علمـــاء فقه وتصوف . وملوك الفونج كانوا يجلون ويعظمون علماءهم وأهل الدين فيهم فقد جاء « ان اونسة بن ناصر ملك سنار لما دخل عليه الفقيه المضوي فرق الديوان من أجله وقام وعانقه وعاتبه على عدم زيارته اياه ... وذكر مؤلف الطبقات ان الملك بادي ولد رباط لما احتاج الى الشيخ دفع الله ابن الشيخ محمد ابو ادريس ذهب اليه في أبي حراز وتبرك بـــه ورجع ... وكان الشيخ خوجلي صاحب القبة المشهورة يهابه السلاطين حتى قيل انهم اذا جلسوا بحضرته يكونون كالاطفال هيبة منه [١] .

قال الرحالة بوركهارد Burckhardt الذي زار السودان يصف « الفقير الكبير » « الفكي » الذي ينتمي الى عائلة المجاذيب في الدامر « في حوالي الثالثة بعد الظهر غادر الفكي غرفته التي كان يقرأ ويدرس فيهـــا منذ الصباح الباكر وجلس على مسطبة من حجر أمام المبنى وسرعان مـــا التف حوله تلاميذه وانهمك معهم في الدرس حتى الغروب . وذهبت مرة لأقبل يده فوجدته رجلاً يدعوك الى الاحترام والتجلة . وكان ملتحفاً ثوباً ابيض . وسألني عن المكان الذي أتيت منه وعن المدرسة التي قرأت فيها وعن الكتب التي قرأتها . وتبين لي ان اجاباتي على هذه الاسئلة قد نالت الاستحسان والرضا منه » [٢] وكان مبنى الشيخ الفكي مليئاً بالكتب الدينية الاسلامية وخاصة كتب الفقه . وكان المسجد كبيراً مبنياً من الطوب . وفي الدامر في ذلك الوقت عدة مدارس يفد اليهـــا

---

١ ـ التربية في السودان للدكتور عبد العزيز عبد المجيد ، ج ١ ، ص ١٩٦ ـ ١٩٧ .

٢ ـ The Fung Kingdom of Sennar by Crawford, p. 57.

الطلاب من دارفور وسنار وكردفان ليدرسوا الفقه ، فيعودون الى بلادهم فقهاء في شعائر دينهم .

وتاريخ كاتب الشونة مليء بالاشعار التي فيها رثاء حار لعلماء الدين والتصوف في ذلك الزمن [1] والكتب التي يذكرها كاتب الشونة في تاريخه لها طابع ديني نذكر منها كتاب طبقات ولد ضيف الله الذي اثنى عليه المؤلف كثيراً وكتاب « حلية الكرما وبهجة الندمـــا » وشرح الاربعين النووية وشرك الشمايل للشيخ محمد مجذوب بن قمر الدين وموطأ مالك . من هذا العرض الموجز يتضح لنا أثر علماء الدين والتصوف في تلك الحقبة من تاريخ السودان .

ونأخذ على كاتب الشونة ايمـــانه بكرامات الاولياء والمتصوفة ايماناً يبلغ درجة السذاجة فقد فسر كاتب الشونة موت اولاد ناصر وهم من الهمج هـــذا التفسير واعتقده صحيحاً « وقد حدثني من اثق به انهـــا دعوة من الولي الصالح الفقيه بدوي ولد ابي صفية لان محمداً كسر خاطره في شفاعة فلم يتم أمره فتوفي الشيخ محمد المذكور » [2] ويصدق كاتب الشونة أن الرسول صلى الله عليه وسلم يستجيب لدعاء من اراد « قرعة مريسة » [3] .

ونأخذ على كاتب الشونة ايضاً استعماله كثيراً من الكلمات العـــامية واللغة الدارجة وهذه امثلة على ذلك « في وقت الكركبة » « اننا جئنا تعبانين وان شاء الله يوم الجمعة نتقابل معكم » « وقال لهم البغل ما مات » « فقال لها « انا ما بروح له. » « وقال ما هي المطمورة ما بقوتها » وجالب له بقرة يبيعها لمصروف رمضان » » وكان الماشي بينهم حسين ولد محمود » « سمعته وقعتـــه باذننا أي الحاضرون حين وقع على ما قبله فقال كع » .

---

١ ـ راجع كاتب الشونـــة ، ص ٤٦ ، ٥٣ ، ٦٧ ، ٧٦ ، ٨٠ ، ٩٥ ، ٩٨ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٧ ، وقد بلغت أبيات الشعر التي ذكرها كاتب الشونة في تاريخه ٤٥٣ بيتاً.

٢ ـ كاتب الشونة ، ص ٥٨ .

٣ ـ كاتب الشونة ، ص ٣٣ .

مراجع المقالة :

١ — مخطوطة كاتب الشونة نشرها الاستاذ الشاطر بصيلي سنة ١٩٦١ م .

٢ — معالم تاريخ سودان وادي النيل للاستاذ الشاطر بصيلي عبد الجليل .

٣ — تاريخ السودان لنعوم شقير .

٤ — التربية في السودان للدكتور عبد العزيز عبد المجيد .

٥ — تاريخ ملوك السودان نشره الدكتور مكي شبيكة سنة ١٩٤٧ م .

٦ — The Fung Kingdom of Sennar by Crawford.

السودان وامكاناته الزراعية للتصنيع

احمد عمر عبيدالله
كلية الآداب والعلوم : جغرافيا

« السودان قطر رعوي زراعي في المقام الاول »وردت هذه العبارة في كتاب الدكتور محمد محمود الصياد بعنوان اقتصاديات السودان طبع في القاهرة ، معهد الدراسات العربية عام ١٩٥٧ .

يصف الكتاب بدقة متناهية الحالة الاقتصادية الراهنة في السودان . ولكن الذي أريده هنا ان اتساءل هل يمكن ان يقـــوم في السودان اقتصاد صناعي يعتمد على هذه الموارد الرعوية الزراعية ؟ وهل يمكن ان نبني اقتصاداً صناعياً زراعياً كالذي نشاهده في الدنمارك وهولندا على سبيل المثال لا الحصر ؟

وللاجابة على هـــذين السؤالين سأتناول الموارد الموجودة الآن وامكانية تطويرها في المستقبل لتكون معيناً لا ينضب لمثل تلك النهضة الصناعية مـــع وصف الموقع والطبيعة .

الموقع :

في الركن الشمالي الشرقي من افريقيا تمتد رقعة كبيرة من الارض تبلغ حوالي مليون ميـــل مربع (٢ ١/٢ مليون كيلومتر مربع) تعرف باسم « جمهورية السودان » . هذه المساحة تساوي بالمقارنة ما يعادل ٢٣ ٪ من مساحة العـــالم

العربي او ما يبلغ مائتي مرة مثل مساحة لبنان . تمتد هـذه الرقعة جغرافياً من خط عرض ٣ شمالاً حيث تحده جمهوريات كينيا والكنغو ويوغندة — حتى خط عرض ٢٢ شمالاً حيث تحده الجمهورية العربية المتحدة (مصر) ومملكة ليبيا في الشمال الغربي . وتمتد مساحة السودان طولاً بين خطي ٢٢ شرقـاً حيث تحـده جمهورية تشاد — و ٣٠ شرقاً حيث يقع اتحاد اثيوبيا وارتريا .

الطبوغرافيا والبناء الجيولوجي :

فالسودان سهل طيني واسع مسطح الا من بعض المرتفعات المتفرقـة التي تكون عنها معظم هذا السهل الطيني — كجبل مرة في دارفور وجبال النوبة في كردفان وهضبة مستوية في جنوب بحر الغزال والاستوائية تمثـل جزءاً من خط تقسيم المياه بين نهري النيل والكنغو وأعلا هذه الهضبة جبال الاماتونج . أما في الشرق فيبدو بعض العلو الذي نجد فيه جبال الانجسنا وجبـال البحر الاحمر التي تمثل امتداداً للهضبة الاثيوبية . اما المظهر الطبوغرافي الوحيد المميز للسودان فهو نهر النيل وروافده .

ويمكن ان نقسم السودان الى ثلاث مناطق جيولوجية : —

١ — الجزء الشمالي : ويشمل هذا الجزء المساحة الواقعة بين خطي عرض ١٥ شمالا (الخرطوم) و٢٢ شمالا (حدود السودان الشمالية) — وهـذا الجزء يتكون من رمـال صحراوية تتخللها بعض الاحجار التي تغطيها طبقات رفيعة من التربة . ويشمل هذا الجزء الترسبات الغرينية في حوض النيل الضيق .

٢ — منطقة شمال كردفان ودارفور : وتعرف هـذه المنطقة بمنطقة (القيزان) [١] وتتكون هذه من مرتفعات رملية ثبتت عن التنقل بفعل جذور النباتات تتخللها بعض المنخفضات ذات التربة المختلطة وبعض التلال الصلصالية .

٣ — بقية القطر — عبـارة عن سهل طيني مسطح تتخلله بعض رواسب

---

١ ـ القيزان : جمع قوز ـ وهو المرتفع من الرمال يتراوح ارتفاعه عادة بين ٢٠ ـ ١٠٠ متر.

المستنقعات والبقع الصلصالية المختلطة التي تعرف (بالقردود) [1] . وفي جنوب مديرية بحر الغزال وجنوب غرب الاستوائية نجد التربـــة ذات الطبيعة الحمراء التي تعرف ب « African Soil » وهي تشمل جزءاً كبـــيراً من اوكسيد الحديد مما يكسبها اللون الاحمر .

أما خصوبة التربة : فتتدرج خصوبة من الجنوب الى الشمال وهي اخصب جنوبا مع اعتبارنا ان تربة النيل هي أخصب انواع التربة . امـــا في منطقة (قيزان) كردفان ودارفور فالخصوبة في الجزء الجنوبي من المنطقة وفي المناطق المنخفضة أكثر منها في (القوز) .

المناخ :

يتدرج مناخ القطر من صحراوي في الشمال الى منـــاخ مداري (استوائي) في الجنوب .

أ – المناخ الصحراوي : يوجد هذا المناخ في المنطقة شمال الخرطوم حتى خط عرض ٢٢ شمالا وهنا يغلب الجفاف وتشتد درجة الحرارة نهاراً وتنخفض ليلاً – ما عدا الجزء الذي يقـــع في ساحل البحر الاحمر حيث تسقط بعض الامطار الشتوية بفعل الرياح الشمالية الشرقية .

ب – مناخ السافنا : يوجد هـــذا المناخ في الرقعة التي تقع جنوب المناخ الصحراوي حتى خط عرض ١٠ شمالا . أمطاره متوسطة الى غزيرة من الشمال الى الجنوب ويستمر فصل الامطار من ٤ – ٦ اشهر في السنة – وامطاره تنتج عن هبوب الرياح الموسمية الجنوبية الغربية التي تهب من المحيط الاطلسي الجنوبي وخليج غيانا (غينيا) . الحرارة بين ٦٠ – ٨٠ درجة فهرنهايت .

جـ – المناخ المداري (الاستوائي) ويشمل هذا المناخ الرقعة الباقية من

---

١ ـ القردود : التربة التي تتكون من اختلاط التربة الطينية والرملية او الحصى .

القطر أي بين خطي ١٠ – ٣ شمالا هذا بالنسبة للسودان وقـــد يمتد الى خط صفر – الامطار هنا غزيرة جداً وقد تستمر الى ثمانية اشهر وفي الحدود الجنوبية للقطر تكون طول العام . الحرارة عالية بين ٧٠ – ٩٠ درجة فهرنهايت .

١ – **السكان** : اتناول السكان قبل النباتات او الحيوانات التي قد تبدو ان لها تأثيراً مباشراً في المناخ وطبيعة الارض لاني سأقتضب في هـــذا وأسهب في التاليين . وأتنـــاول تقسيم السكان بالنسبة لحرفهم ولا اريـــد تناوله بالنسبة لاجناسهم او قبائلهم لان هـــذا يزكي نار التعصب القبلي ويقتل الروح القومي الموحد الذي يدفع بالاقتصاد للامام ويرتفع بالبلاد الى مراكز اسمى – وثمـــة شيء آخر هو ان تقسيم السكان بالنسبة للحرف يعكس لنـــا مدى اعتمادنا على مورد الدخل عندهم .

وان اكثر السكان يحترفون الرعي والزراعة اذ تمتص هاتان المهنتان مـــا يقارب ٨١٪ من السكان العاملين ، وعشرون بالمئة هم التجار والموظفين والعمال وبقية سكان المدن .

أما الرعاة فيمثلون ما يقارب الـ ٦٠٪ من السكان وهم قسمان :

١ – رعاة الابل : ويعرفون (بالابالة) ويعتمدون على الجمـــال كوسيلة للعيش والتنقل ويسكنون الاجزاء الشمالية من مديريات كردفـــان ودارفور وكسلا . ويمتلكون الجمل ذي السنام الواحد وفيه انواع منها الخاص بالركوب ويعرف بالجمل البشاري اي ينسب لجمال البشارين ومنها الخاص بالجمل . ويمكن حصر هـــذا الاختصاص عند الكبابيش والكواهلة والهدندوة والبشارين . ويتنقلون طوال العام طلبـــاً للمرعى لجمالهم الا من شهيرات قليلة يقضونها في اماكن الماء وهذا في الصيف وتعرف هذه الفترة (الدمر) [1] . ويمتلك هؤلاء بجانب الابل نوعاً من الضأن جيد اللحم والصوف سنأتي على ذكره .

---

١ – الدمر : الاستقرار والسكن في مكان واحد – والدامرة في بعض اللجهات تعني القرية.

٢ – رعاة البقر : وهؤلاء يعرفون (بالبقارة) ويسكنون الجزء الذي يلي رعاة الابل جنوبا في مديريتي كردفان ودارفور ومديريات بحر الغزال وأعالي النيل والجزء الجنوبي والجنوبي الشرقي لمديريتي كسلا والنيل الازرق – تمتد منطقتهم من نهري الدندر والرهد الى نيالا غربا مع جعلنا خط الرصيرص – كوستي – الابيض – الفاشر الحد الشمالي لانتشارهم .

ويعتمدون على الابقار في كل حياتهم ويتنقلون بها طلباً للماء والكلأ وهروباً من الذباب في بعض اوقات من السنة . ولكن تبدو منطقتهم اخصب واغزر مطراً من منطقة رعاة الابل في الشمال – ولهذا نجدهم يزرعون بعض الغلال التي قد لا تسد حاجتهم السنوية مما يجعلهم اكثر التصاقاً واعتماداً على ابقارهم .

والمزارعون قسمان كذلك – ولكنهم يزرعون محاصيل استهلاكية كالذرة والدخن والقمح والشعير ومحصولات نقدية كالقطن والفول السوداني والسمسم .

فجزء منهم يعتمد في زراعته على النيل واستعمال طرق الري على اختلافها من الري بالخزان والطلمبات الى الري بالشادوف والوسائل التقليدية كالسواقي مثلاً . اما الجزء الآخر فيعتمد على الري بالامطار وهؤلاء يسكنون بقية مناطق السودان التي لا يجري فيها النيل او انه لم يستغل فيها لمثل هذه الاغراض .

٢ – **النباتات :** ثروة السودان النباتية هي اكثر الثروات فيه وبالتالي اوسعها انتشاراً في ارجاء القطر وهي نوعان الغلال المزروعة والغلال الطبيعية :

أ – أما الغلال المزروعة فهي التي تحتاج لعناية كبيرة من الانسان ووقت طويل من رعايته لانها فقدت قوتها الطبيعية على العيش بفعل تدليل الانسان واهتمامه بها وهي الذرة وتزرع بكميات كبيرة في معظم اجزاء السودان ويعتمد عليها معظم السكان كغذاء رئيسي – ولكن قيمتها الغذائية ضعيفة اذا ما قورنت بالقمح والارز . وهي تزرع في المناطق المطرية ومناطق الري الصناعي على السواء . الدخن وهو كالذرة تماماً ولكنه يفوقها جودة في القيمة الغذائية

ولكنه يقل ايضاً عن قيمة القمح او الارز . ويزرع كذلك في مناطق كثيرة في القطر ويستعمل لنفس الغرض – كغذاء . القمح والشعير ويزرعان في المديرية الشمالية بكميات قليلة جداً لا تكفي حاجة الناس . الارز ويزرع في المناطق المنخفضة من المديريات الجنوبية (مناطق المستنقعات) وقد اثبت جودة ووفرة ولكنه في طور تجريبي. وعلى ذكر الغلات نأتي لذكر المحصولات الزيتية – واهم هذه المحصولات الفول السوداني الذي ينتج كمحصول نقدي ويعد للتصدير ولكنه يحوي كميات من الزيت تستخرجها العصارات المحلية للاستهلاك المحلى . اما اجود انواع المحصولات الزيتية هو السمسم وقد اثبت انه اوفر انتاجاً للزيت .

اما فضلات هـذه المحصولات – كالقصب والامباز (كيك) فيذهب من غير ان يستفاد منه الفائدة المرجوة التي تدفع الى ازدياد المنتوج منه وبالتالي من مادته الاولى – لعدم وجود الاستهلاك كعلف للحيوانات .

ب – والغلات الشجرية تتكون من الآتي :

الدوم من فصيلة النخيل ويعرف (بالعاج النباتي) وينمو في مديريتي كسلا وشرق النيل الازرق– ويستعمل محلياً في صنع الحصر والحبال اما ثمرته فيستفاد منها في صناعة الخمور المحلية والنوى يستعمل في صنع الزرائر – ويبدو ان هذا هو الذي جلب اليه التسمية السابقة (العاج النباتي) .

الصمغ العربي – ويستخرج من مجموعة اشجار هي الهشاب والسنط والطلح وتعرف (بالاكاشيا – Accia) واجود هذه منتوجاً الهشاب وينمو الهشاب في سهول كردفان الوسطى من تندلتي شرقاً حتى ام كدارة شرق مديرية دارفور وتشمل هذه الرقعة مدينة الابيض شمالاً وجنوباً اي يمكن ان يكون عرضه المسافة التي تمتد بين مدينتي بارا وابي زيد . وتعتبر كردفان اكبر مركز لتسويق الصمغ العربي في العالم اذ تنتج منه ما يقدر بحوالي ٧٠ ٪ والـ ١٠ ٪ البـاقية من انتاج السودان للصمغ تتكون من صمغ السنط والطلح في مديرية كردفان (جبال النوبة) جزءاً بسيطاً اما اكثره ففي مديريتي كسلا والنيل الازرق .

ثم نعود لمنتوج المديرية الشمالية الهام وهو البلح اذ تمتـد مزارع النخيل على طول ضفاف النيل من شمال الخرطوم حتى منطقة حلفا . ويستفاد منه كمحصول نقدي وكمحصول غذائي في صناعة الخمور والمربيات ومن اسعافه وجذوعه في الصناعات المحلية والمباني وبذكر النخيل نـأتي لذكر غلة زيتية هي (نخيل الزيت) وقد ادت تجربة زراعتهـا في السودان لنجاح مطمئن في المديريـة الاستوائية اذ يشابه طقسها طقس جنوبي نيجيريا الموطن الاصلى لهذه الشجرة .

جـ – المكيفات : واعني بها البن والشاي والكاكاو والسكر وتجري تجارب ناجحة لزراعتها في مختلف اجزاء السودان كجبـل مرة والمديريات الجنوبية . اما التبغ فيزرع بكميات بسيطة للاستهلاك المحلي في جبل مرة وجبال النوبة ولكنه من الانواع غير الجيدة عالمياً . والكركري بدأت تجارب زراعته في كردفان بنجاح وهـذا النوع من النبات يمكن ان يسد بكل سهولة حاجة السودان والبلاد المجاورة من المشروبات الخفيفة (Soft Drinks) كما يستعمل كذلك في صنع نوع من المشروبات الساخنة (الشاي) .

الخروع نبات زيتي يستعمل في تركيب بعض الادوية والعقاقير – وزراعته اتت بمحصول وافر في دلتا نهر القاش بكسلا بالمديرية الشمالية .

د – الفواكه : يصلح السودان لانتاج بعض فواكه المناطق الحارة والحمضيات وهي تظهر الآن بكميات قليلة في حدائق المديرية الشمالية وحدائـق مديرية الخرطوم . وفي بعض المناطق في جبل مرة يمكن انتاج بعض فواكه المنـاطق المعتدلة الدافئة ، كالتفاح والعنب والمشمش نسبة لعـلو المنطقة الشيء الذي يكسبها اعتدالا مناخياً في فصل الشتاء اكثر منه في بقية اجزاء القطر – وقد بدأت التجارب تجري هناك ولكن مدى نجاحها لم يظهر بعد . أمـا فواكه المناطق الحارة فمنها المانجو وهو ينمو طبيعياً في بعض مناطق السودان وكذلك الاناناس في المديريات الجنوبية والموز في مديرية كسلا والاستوائية . في مديرية كسلا ينتج الموز بكميات تجارية جيدة .

هـ – الاخشاب : الخشب هـو النوع الجامد الذي يدعى (Hard Wood) وهو المهموجني او الموريا والتيـك والسنط – وتستغل هذه في البناء والاثاث ويستعمل السنط بالدرجة الاولى كعوارض (فلنكات) للسكة حديـد . كما يستعمل المهموجني والتيك لبنـاء عربات الركاب بالخطوط الحديدية . وهناك اخشاب الدليب والدوم والنخيل وهـذه اخشاب هشتة (ليفية) تستعمل في الاستهلاك المحلي للبناء . وثم هناك اخشاب الحريق والفحم النباتي وهذه تتواجد في معظم مناطق السودان وخاصة في المنطقة التي تقع جنوب المناخ الصحراوي. أما اخشاب التيك والمهموجني فتوجد في المديريات الجنوبية وجنوب كردفـان ودارفور وفي بعض مناطق متفرقة من القطر .

أما الاعشاب والحشائش ففيها الضار الذي لا يصلح لأي عمل وفيها مـا يصلح للمرعى – وهي تشمل كل السودان بالتقريب مع التفاوت في الغزارة تبعاً للمناخ . وهناك اعشاب النيل التي تشكل عطلاً للملاحة على النهر واذا تركت تنتشر بسرعة ثم تسد مجرى النقل النهري – ولكن يمكن الاستفادة من هـذه الحشائش في صناعة الورق المقوى وبعض الصناعات اليدوية .

و – القطن : هو العصب الاقتصادي بالنسبة للسودان ويزرع وينتج بنوعيه طويل التيلة وقصيرها الذى يعرف بالامريكي – يزرع النوع الاول في اماكن الري الصناعي على النيل الازرق (الجزيرة) والنيل الابيض ونهر النيل شمال الخرطوم (الزيداب) وفي كسلا على نهر القاش . أمـا النوع الثاني فيزرع في جبال النوبة والمديرية الاستوائية (انزارا) ويعتمد هذا على المطر .

٣ – الحيوانات :

ولنأخذ من الثروة الحيوانية الاليف الذى يعتمد عليه اقتصاد السودان والذى ارتبطت به حياة الناس وصار اعتمادهم عليه مباشراً .

أ – الابل : وتقدر ثروة السودان منهـا بحوالي المليونين ويمتلكها الرعـاة

الذين يسكنون منطقة الصحراء وشبه الصحراء وهؤلاء يكوّنون الكبابيش والكواهلة ومجموعة البشارين والشكرية . ويتنقلون طوال السنة وبـــذا صار اعتمادهم عليها مباشراً وضرورة في كل مرافق الحياة . تصدر الجمال وبالاخص للقطر المصري — و « القاهرة وحدها تستهلك حوالي ٧٠٪ من وارد الجمـــال السودانية » [١]

ب — الاغنام : واعني هنا الضان وتقدر الثروة السودانية منه بحوالي تسع ملايين تنقسم الى خمس فصائل حيث النوع والجودة في اللحم والصوف ووفرة انتاج اللبن .

١ — الضان الصحراوي الذي يعرف بأسم الغنم العربي (ام سعين) يتراوح وزن الواحد منها بـين ١٠٠ — ١٥٠ رطـلاً — لونه ابيض في الغالب وصوفه جيد يستعمل في النسيج عند الكبابيش ودار حامد (الشنابلة وبني جرار) — وتنتج الانثى حوالي ٥ — ٦ ارطال لبناً في اليوم . وهذه تحتل المنطقة الواقعة شمال مدينة الابيض حول سودرى وبارا وام بادر ولا تتعدى الابيض او جنوبها الا في فترات الجفاف الشديدة طلباً للماء والمرعى .

٢ — ضان زغاوة (غنم المرتفعات) يزن الواحد منها بين ٥٠ — ٧٠ رطلاً ولكنها قليلة اللبن ورديئة الصوف — وينتشر هذا النوع في منطقة الزعاوة في شمال دارفور ويستمر امتداد هذا النوع حتى جمهورية تشاد .

٣ — الضان النلوتي (غنم جبال النوبة) هذا النوع من الضان ضئيل الحجم يزن بين ٢٠ — ٣٠ رطلاً قصير الصوف ولكنه ناعم الملمس مع عدم جودة لحمه . وينتشر هذا النوع في منطقة جبال النوبه حتى خط عرض ١٢ شمالاً .

٤ — ضأن كبوتيا يشبه لحد كبير جداً ضأن جبال النوبه ولكنه اكبر منه بقليل اذ يزن الواحد منها ما بين ٤٠ و ٦٠ رطلاً .

---

١ — الدكتور محمد محمود الصياد — اقتصاديات السودان ، ص ٢٧ .

٥ – الضان النيلي – وهو ينتشر في ضفتي النيل في اواسط السودان. متوسط الوزن ٧٠ رطلاً قصير الصوف وتدر اناثه مقدارا من اللبن يتراوح بين ٣٫٥ الى ٥ ارطال لبناً .

وعلى العموم هذه الانواع من الضأن جيدة اللحم نوعاً ما ويكثر درهـا في فصل الامطار ولكن هذا اللبن قليل بحيث انه لا يكاد يتعدى اثرها الاقتصادي حاجة اصحابه الاستهلاكية اما اللحوم والصوف فهي التي ذات اثر ملحوظ .

ثم يأتي ذكر الماعز وهو حوالي ٧ ملايين ولكنه لا يلعب اي دور في البناء الاقتصادي وهنـالك شيء آخر هو ان الماعز يساعد مساعدة فعـالة على تعرية التربة من جـذور النباتات وبالذات في منطقـة (فيزان) كردفان ودارفور – ولذا فهو آفة على الارض .

جـ – الابقـار : وتقـدر ثروة السودان منها بحوالي عشرة ملايين – ولكن دورها في الاقتصاد ما زال قاصراً على استغلال اصحابها محلياً في الاعتماد على لبنها ولحمها وما تلقيه على مالكهـا من مكانـة اجتماعية مرموقـة وتيسر له امر الزواج وكل امر عسير . وتشتغل بتربية الابقار مجموعة من القبائل السودانية في منطقة (السافنا) وتمتلك ثلاث انواع (فصائل) مختلفة :

١ – البقارة : ويربون نوعاً هو « هجين من قصير القرن ذو السنام (القتب) الافريقي الاصل والزيبو (Zebu) طويل القرن الاسيوى الاصل » . [١] وهذا النوع قليل اللبن وقليل اللحم ولحمه ليس جيداً . اذ حتمت عليه طبيعة التنقل السريعة في حياة صاحبه ان يكون خفيف الوزن سريع الحركة حتى يستطيع قطع المسافات البعيدة بسهولة ويسر .

٢ – الدينكا والشلك والنوير (القبائل النيلية) وتربي نوعاً هو « خليط من

---

١ – الصياد ، ص. ٣٠ .

طويل القرن عديم السنام (القتب) الافريقي والزيبو الاسيوى الاصل طويل القرن » [1] . وهذا يعرف ببقر الجنوب القصير القامة طويل القرن ويعرف عند قبائل البقارة ب (جوك) .

٣ – وهناك قبائل الكنانة التي تمتد سكناها في منطقة شرق النيلين الابيض والازرق الى ارض البطانة . وتربي هذه القبائل نوعاً جيداً من الابقار اذ انه اكبر حجماً واوفر لبناً من النوعين السابقين مع قصر في القرون وصغر في السنام ويعرف هذا النوع في السودان ب (ابقار الكنانة) . أخذت طلائق منه لتحسين النسل في مناطق البقارة في كردفان ودارفور والعملية الآن في طور التجربة .

وبهذا العرض السريع المقتضب لطبيعة السودان وموارده الحالية والامكانيات الكامنة لتنميتها نعود لنلقي نظرة على الصعوبات التي تعترض قيام مثل هذه الصناعة .

١ – **القوة المحركة** : لعدم وجود الفحم الحجري والبترول بالسودان لتوليد القوى الكهربائية لدفع عجلة الصناعة في المناطق التي تبعد كثيراً عن مسقط النيل وروافده يمكن ان نلجأ للقوة المائية وهذه نفسها محصورة في حوض النيل وفروعه ولكن يمكن توليد مثل هذه القوة المائية وتصديرها للمناطق التي تفتقر الى الموقع بالقرب من الانهار. وهذا سهل بسيط اذ توصل العلم التقني (التكنيكي) لمثل هذه الحلول . وثمة شيء آخر هو يمكن بناء خزانات في النيل وروافده خصيصاً لهذا الغرض . ويميل بعض الناس لاستغلال الطاقة الذرية لمثل هذه الاغراض ولكن هذا يبدو بعيد المنال في وقتنا الحاضر نسبة لظروفنا وعدم توفر المواد اللازمة لتوليد هذه القوى .

٢ – **الماء** : قد يستغرب القارىء لوجود صعوبة في مياه الشرب

---

١ – الصياد ، ص. ٣٠ .

بالسودان والنيل يجري بارضه . ولكن يزول العجب لو رجعنـــا قليلاً للوراء ونظرنا لطبيعة السودان وطبوغرافيته . فالمديريات الغربية – كردفان ودارفور تبدو اكثر ارتفاعاً من النيل وتنحدر منها بعض الوديان لتصب في النيل كخور[1]

« ابي حبل » وبعض الوديان التي نضب معينها في عهود جيولوجية قديمة – مثل وادي هور ، وادي الملك ، ووادي المقدم وكلها اليوم تقع في الجزء الصحراوي من مديريتي كردفان ودارفور .

ويمكن توفير المياه في كردفان ودارفور في الجزء الجنوبي منهما اذ تكثر فيه الامطار وتنحدر منه بعض الاودية تصب في النيل عند مجرى بحر العرب ومثلاً لذلك وادي « الغـــلة » ووادي « شلنفو » ووديان دارفور منهـــا وادي « كجا » ووادي « قولو » أمـــا في الناحية الشرقية بكردفان نجـــد خور « ابي حبـــل – » وباقـــامة سدود وانشاء بحيرات صنـــاعية صغيرة في هذه المناطق تتوفر المياه للرعاة ولمواشيهم طيلة السنة مما قد يشجعهم على الاستقرار . كذلك توجد في هذه المناطق بعض المنخفضات التي تتجمع فيها مياه الامطار وتسمى « الترد جمع تردة »[2] كتردة الرهد ابي زيـــد والبردية

وكجيرا – يمكن توسيع هذه المنخفضات وفتح مجاري الخيران فيها حتى تمتلىء بالمياه وتحفظها لمدة اطول مع الصيانة المستمرة والمراقبة الدقيقة لمقاييس المـــاء والتبخر . وهناك كذلك بعض البحيرات والمستنقعات التى يمكن الاستفادة منها لذات الشيء وبنفس السبل . أما في المناطق التي لا تتمتع بمثل هـــذه الطبيعة يمكن حفر بعض الحفائر كما هو الآن لجمع الماء للشرب وللماشية .

واعتقد انه من الممكن توفير مثل هذه الكمية من المـــاء لو حسبنا كم من الجالونات نحتاجها للمواشي في السودان بعد تعدادها الدقيق والكمية التي ستهلكها

---

١ – خور : وادي موسمي .
٢ – تردة : مستنقع مياه .

الحيوان من المـــاء في اليوم والمدة التي يمكن ان تعيشها بعض الحيوانات بدون ماء . فمثلاً لذلك نقول ان تعداد ابقار السودان ١٠ ملايين ويستهلك الثور او البقرة ٦ جالونات ماء في اليوم فلا يمكن ان نعرف الكمية التي نريدها في اليوم وبالتالي في اشهر الجفاف علما بأننا نتجاهل تعداد الماشية التي تعتمد على النيـل وتوفر لنا مقداراً من المخزون المائي خارج نطاق الانهار .

٣ – **استقرار الرحل** : الاستقرار بحد ذاته هـــو الشرط الاول لتقدم الانسان الحضاري فهو اذن من مقومات الاتجاه الصناعي في العالم . ولذا يصير لزاماً على الدولة والجماعات الواعية المثقفة اعطاء هذا الموضوع عناية كبرى فهو يحتاج لصبر وتضحية . فالحكومة يمكن ان توفر المتطلبات الاولية لهـــذا المشروع كايجاد المـاء ومحاربة الذباب الذي ينقل امراض الحيوان . وهذا مـا يشكو منه الرحل فعلا الآن . ومـع توفير الحكومة لهذه المتطلبات يـأتي دور الجماعة الواعية في حمل لواء التوعية وتبصير الرحل بحقوقهم وواجباتهم ومحاربة هذه العادة – عـــادة التنقل – حتى بواسطة الحكومة اذ يمكن ان تفرض الحكومة ضريبة معينة زيادة على الضرائب العادية على كل من لا يتخلى عن هذه العادة وتحـاول اعفاء المستوطنين (المستقرين) من بعض الضرائب حـــتى يرى الرحـــل ان الدولة لديهـا النية الحسنة في تغيير وضعهم . ولكن قبـل كل ذلـــك يصير لزامـــاً على الدولة ان تفي بالتزاماتهـــا وان تجري كذلك تجاربـــاً تحرز بعض النجاح ليطمئن الناس ولا يدخلون في مغامرة لا يعلمون نتائجها . وفي ذات الوقت عليها لمحاولة تحسين النوع وتقوية الجيد المفيد منه حتى يكون لديها النوع الجيد عند البدء الجدي في الاستقرار .

٤ – **التوعية العامة** : يقع على الدولة اكبر العبء في نشر الثقافة الزراعية والصناعية اذ انها تملك اكثر وسائل الاعلام فعالية كالاذاعة والسينما المتجولة – ويمكن كذلك انشا مكاتب للتوعية في مختلف المناطق اى ما يسمى الآن بالارشاد ولكنه اليوم محصور في الارشاد الزراعي فقط . فيكون افيد لو ان

كل مجلس محلي انشأ فرعاً لمكتب الارشاد يختص بمنطقته وينشر الوعي الزراعي او الصناعي او الصحي الذى نحن في اشد الحاجة اليه .

٥ – **المواصلات** : وبايجاد الحل الدائم لمشكلة المواصلات كتوسيع الخطوط الحديدية وامتداد خدماتها لمناطق الانتاج، وايجاد الطرق البرية المعبدة بالاسفلت والتي تربط المسافات البعيدة كالمسافة بين الخرطوم والفاشر عن طريق سوذرى او الخرطوم بورتسودان وتعرف مثل هـــذه الطرق بـ (الاوتوستراد او High ways) . او حتى تعبيد الطرق البرية بطريقة تكفل استمرار المواصلات فيها بسهولة طول السنة ، يرفع السودان الى مصاف الدول ذات الاقتصاد المركز والكفاية الانتاجية .

٦ – **الصعوبة المادية** : اما هذه فهي ام المشكلات واعسر الصعوبات التي تقابلنا اليوم بعد ان عشنا ست سنوات عجاف من عمرنا المبكر وخرجنا بعدها في حالة ضعف لا يستطاع معه الوقوف على الاقدام . ولكن علينـا ان نواجه الواقع بالصبر والعمل الدائب ونحاول جهد استطاعتنا ان نجد حلولاً ولو وقتية لهذه المعضلة بالذات – وذلك قد يكون بالآتي او بغيره : –

أ – انشاء بنوك او شركات للتسليف الزراعي والصناعي مع اتباعها مخطط الدولة الاقتصادى العام واتجاهها في تطوير اقتصاديات البلاد .

ب – انشاء وتشجيع الجمعيات التعاونية ذات رؤوس الاموال الكبيرة التي تهدف لهـذا النوع من التطوير – الصناعي والزراعي كما هو الحـال في الدنمارك مع خضوع هذه الجمعيات كخضوع الجمعيات التعاونية اليوم للتخطيط والتدقيق من جانب الدولة .

جـ – تشجيع استثمار رأس المـال الاجنبي وتوجيهه وجهة الاقتصاد الوطني مع خضوعه الكامل غير المحدود لمراقبة الدولة ومحاسبتها حتى لا تذهب فروعه مذاهب قـــد تضر بمصالح الدولة والافراد . وان يكون من السهولة تأميمه مستقبلاً .

د – المعونات ذات الطابـــع الاقتصادي والسلفيات من البنوك الدولية – وحصرها في هذا النوع من التطوير الاقتصادي مـــع الحد التام من مؤثراتها السياسية وما يتبعها من اغراض استراتيجية التي تهدف اليها بعض الدول التي تقدم المعونات .

٧ – التخطيط : هذا في نظري هو أهم مقومات الاقتصاد وكل حياة تهدف لمستقبل زاهر . فالتخطيط الدقيق جداً هو الذي يوصلنا لبر السلامة في المستقبل ويجب ان يكون مع هذا التخطيط هدف نود الوصول اليه ولا نخطط في الهواء ونحتاج مع كل هذا الى اخلاص وروح وطنية تدفعها ذاتيتها للعمل من اجل هذا الشعب المتوثب ولكني اعود فأقول اننا اليوم وبكل فخر لا نفتقر لهذه الروح والاخلاص ولكن نريـــد المزيد فبتكاثر الخبرات الفنية والاقتصادية وبتجمعها واستقلالها نصل للهدف الذي نصبو اليه .

الصناعات الزراعية : باعتبار ما رأينا من موارد طبيعية وحيوانية نجد ان السودان باستطاعته ان يتجه نحو الاقتصاد الصناعي الذي يعتمد اساساً على تلك الموارد ولنورد امثلة لهذه الصناعات :

١ – صناعة الالبان وهي استخراج الزبد ، صنع الجبن وتجفيف اللبن – وهذه الصناعة يمكن ان تسد حاجة القطر مستقبلاً وتوفر عليه قدراً كبيراً من العملات الصعبة ، كانت تخرج لمثل هذه المواد . وهي بالتالي يمكن ان تشارك في اتساع الدخل القومي ورفع المستوى المعيشي للفرد العادي وتدر على القطر قدراً لا يستهان بـــه من العملات الصعبة عند تصدير الفائض عن الحاجة . واعتقد اننا في شبه ضمان لتسويق هذه المنتوجات في افريقيا والعالم العربي مـــع اعتبار وضعيهما الجغرافي والسياسي .

٢ – صناعة اللحوم والاسماك (تعليب اللحوم والاسماك ، الصناعـــات الجلدية) وهذه مثل الاولى اذ انها تعتمد على نفس المورد مع اختلاف في الهدف من ايجاد المورد ونجد لها سوقاً رائجاً في البلاد العربية اذ ان معظمها يفتقر الى

المورد الحيواني أما لجدبه او لقلة رقعته ، ولا سيما ونحن نصدر هـذه الحيوانات اليوم حية لتلك البلاد .

٣ – صناعة المنسوجات : يجب ان تمتد لتسد حاجة السكان لانهم يملكون المواد الخام بكميات تكفي الحاجة وتزيد – كما يجب حماية هـذه الصناعة بالضرائب الجمركية العالية على الوارد الاجنبي ولكن يجب الا يغيب عن بالنا مراقبة هذه الصناعة المحلية وتطويرها حتى نكتفي بها من حيث الجودة والكم .

٤ – تعليب الفواكه : هذه الصناعة يمكن قيامها في مناطق الانتاج اذ ان الفواكه تتعرض للتلف بسرعة نظراً لحالة المواصلات الراهنة . وبجانب هـذه الصناعة يمكن ان تقوم صناعة التخمير (الكحول) .

٥ – عصر الزيوت : ما دام لدينا انتاج وافر للمحاصيل الزيتية وبالاخص السمسم والفول فيمكن قيام هذه الصناعة محلياً ولكن بمقدار اكبر ويصدر الفائض منها للخارج .

وبقايا هذه المواد كالامباز (oil cake) يمكن ان يستغل بكميات وافرة لعلف الحيوانات التي تربى في مزارع الالبان وبذلك يتوفر لمزارع الالبان الغذاء الجيد لحيواناته في فترات جفاف الحشائش . وهنـاك زيوت تستعمل لاغراض اخرى غير النوعين السابقين يمكن ان تصدر زيوت بدلاً منها مواد اولية اذ انها بعصرها هنا تتيح فرصة للعامل السوداني لضمان العمل .

وانتاجنا من هذه الصناعات زيادة على ما يدره علينا من فـائض في توفير عملات كنا نستعملها لجلبه من الخارج يزيد الدخل بتصدير الفائض منه لاسواق العالم . وبذا نكون مددنا يداً ندفع بها مع شعوب العالم اجمع عجلة تقدم البشرية الى رخاء ورفاهية دائمين .

المراجع :

١ – الصياد ، الدكتور محمد محمود – **اقتصاديات السودان**، معهد الدراسات

العربية العليا ، القاهرة ، ١٩٥٧ .

٢ – البراوي ، دكتور راشد – **دراسات في السودان واقتصاد الشرق الاوسط** ، جمعية الشرق الاوسط ، القاهرة ، ١٩٥٠ .

٣ – اتحاد الطلاب السودانيين بلبنان – **السودان** (الكتاب السنوي ١٩٦٣) .

٤ – حكومة جمهورية السودان – **تقويم السودان** ، Sudan Almanac .

٥ – أ . ج . هودجكن – **جغرافية السودان** ، Sudan Geography .

٦ – و . ب . فيشر – **الشرق الاوسط** ، The Middle East .

الدولة الاتحادية

زين العابدين سراج الدين
كلية الآداب والعلوم : علوم

قبل ان استرسل في البحث اود ان اقف لحظة استرجع فيها بعض الفلسفات الانسانية والنظريات الفكرية السياسية التي كان لهـــا الاثر كل الاثر في ظهور فكرة الدولة عامة والاتحادية على وجه التحديد .

ان النظم السياسية التي تعتمد على الانسان العادي في قواه العقلية والجسمية تنظمها وتثق بها هي تلك النظم التي برزت مع استرداد الرجل العـادي والعبد كرامتهما وعزتهما من النبلاء والشرفاء . ففي العصر الهومري كانت الطبقات الارستقراطية هي صاحبة الحل والعقد تشرع وتخطط لمصلحتها الخاصة فكم من ارواح ازهقت واعمار هدرت في غمار حروب لاسترداد كرامة سيد يستردها له عبيده وخدمه وحشمه وليس هناك من يسترد لهذا العبد او ذاك الخادم كرامته اذا هرقت وشرفه اذا لحق به العار . فتطورت المجتمعات فكرياً واتجهت نحو الرجل العادي تنظم علاقاته مع النبلاء والاسياد وتحفظ له حقوقه وتحـــدد له واجباته في اطار المعقول والنفع العام .

اذن كان ضرورياً ان تتجه البشرية نحو نظام ينبع من صميم البشر فكانت الدولة وظهر فلاسفة كافلاطون ينكرون ان العدالة هي حكم الاقوى والبشرية تبحث عن تبرير للدولة بالاهداف السياسية التي تسعى لها . ومنذ ان قال ارسطو ان الدولة توجد لتوفير حياة طيبة والبشرية تبرر وتصر كما اصر هوبز على انه لن

تكون هناك حضارة ما لم توفر هذه الحضارة امناً ينبع من سلطانها على الحياة والموت ، وتوافق كما وافق لوق على انه لا بـــد من قيام جهاز عام للحكم حتى تتمتع البشرية بحقوق الحياة والحرية والملكية التي اذا لم تتمتع بها في سلام عاشت حياة بائسة .

فتتطور فكرة الدولة بتطور الفكر الانساني من ملك لشخص معـــين له مطلق السلطة والسطوة الى عقد اجتماعي بين الافراد والحاكم وبين الافراد بعضهم ببعض على الخضوع لنوع معين من نظم الحكم . وصار الانسان كما قال روسو مخلوق بلغ من النبل حداً يجعل من الصعب استخدامه كاداة لغيره كما يجعل من العسير استخدامه لما يفيد الآخرين ما لم يكن في هذا فائدته هو ايضاً .

فقامت دول تجتمع في فكرة انهـــا دول تتمتع بقوة قسرية تكون في يد رجـل واحد فتكون الملكيـة وفي يد مجموعة مختـــارة فتكون الاوتوقراطية وتكون في يـد مجموعة مختارة من عـــامة الشعب وتكون الديمقراطيـة . وفي العصور الوسطى برزت مفاهيم جديدة للدولة والحاكم . اذ سادت عند السواد الاعظم من فلاسفة ومفكري العصور الوسطى فكرة الحاكم كمفوض ومندوب وممثل للاله على الارض يتولى سلطاته وفق ميثاق خاص . فقامت الكنائس كممالك واقطاعيات واسعة متسترة بستار الدين يقيهـــا الانتقاد والاعتراض . وحدثت طوال هذه العصور معارك فلسفية وعسكرية بين انصار الفرق المؤيدة للكنائس وحقها الالهي في الحكم وبين معارض الى ان قضي على سلطة الكنيسة في بدء العصور الحديثة لعوامـــل النهضة والاصلاح الديني وظهرت القوميات الاوروبية الحديثة . وانتشر حكم الملوك وظهر الطغيان والاستبداد اثر عقدة هؤلاء الملوك من الكنائس التي كانت تهددهم طوال العصور الوسطى .

وفي العصور الحديثة نصل لمؤلفي المذهب التعاقدي المحدثين وهم هوبس وبوصويه وجروسيوس واسنوزا ولوق . فذهب هوبس مثلا في كتاب التنين الى ان الملك يحكم وفق عقد لا رجوع فيه ، تنازل الافراد بمقتضاه للملك عن كل حق

لهم . وان الانسان وجد ان مصلحته في تنظيم علاقته مع بني جنسه وان يتنازل عن قسط من قوته على شرط ان يفعل الاخرون بالمثل وعلى ذلك نشأ بين الناس عقد مبدئي قائم على خوف الناس بعضهم من بعض وعلى اساس ان هذا العقد سيحقق لهم ميزات تفوق ما يتمتعون به في حالة الطبيعة . وجاء روسو المفكر الفرنسي متاثرا بهذه الاراء وقال في مقدمة الميثاق الاجتماعي « ان الانسان يولد حرا ولكنه مكبل بالاغلال في كل مكان » ، فكيف اذن انتقل الانسان من الحرية التي ولد فيها لحال من العبودية تسيطر عليه ويخضع لنظم تستذله وتتحكم في مصيره . يستطرد روسو قائلا انه من غير المعقول ان يكون القانون الطبيعي اساس هذا الاستعباد ذلك ان الاسرة وهي اقدم مجتمع في العالم هي المجتمع الطبيعي بين صور المجتمعات وفي هذا المجتمع الطبيعي لا يخضع الاولاد للاب والام الا اذا كانوا في حاجة الى رعايتهم والمحافظة على حياتهم ، فاذا كبروا اصبحوا احرارا مستقلين .

والاسرة ما هي الا نموذج مصغر للمجتمع السياسي بالسلطان يمثل الاب والشعب الاولاد والكل لما كانوا احرارا متساوين لا يمكن ان يتنازلوا عن حريتهم الا لصالحهم ولما يكون من شانه ان يحافظ على حياتهم وبقائهم ، لان القانون الطبيعي الاول للانسان هو ان يسهر على المحافظة على نفسه وعلى بقائه . ووضع الانسان هذا العقد ليتخلص من حالته الطبيعية الى حالته الاجتماعية متنازلا عن حريته نظير ميزة اكبر منها ستعود عليه بالنفع . وليس ثمة من وسيلة لانقاذه من حالته الطبيعية الا البحث عن شكل للوحدة او للاجتماع من شأنه ان يحمي وبقي شخص كل عضو وامواله شكل للوحدة يكون فيه كل عضو وقد اتحد مع الاعضاء الاخرين غير خاضع مع ذلك الا لنفسه ، ويظل ايضا متمتعا بنفس الحرية التي كان يتمتع بها من قبل . ووفق هذا العقد يعد كل مساهم او مشترك او عضو متنازلا بلا تحفظ عن حقوقه للمجموعة وهنا التنازل ليس لمصلحة شخص معين بل هو لمصلحة الجماعة التي هي مصلحة كل فرد من الافراد . فكل شخص منا يضع تحت تصرف الجماعة شخصه وكل قوته تحت قيادة الارادة

العامة . وهذه القوة والشخصية والارادة العامة التي تتكون من اتحاد الافراد هي ما كان الاقدمون يطلقون عليها اسم المدنية ويطلقون عليها الان اسم الجمهورية او الهيئة السياسية التي يسميها اعضاؤها باسم الدولة او السلطان .

والحكومة هي همزة الوصل بين الرعايا والسلطان لكي تتولى تنفيذ القوانين وصيانه الحريات المدنية وهي هيئة لا سلطان لها اذ السلطان الوحيد في المجتمع للشعب . وهي مفوضة لتنفيذ القوانين التي تسنها الدولة وتكوين هذه الحكومة وتفويضها انما يتم وفق قانون يصدر عن الارادة العامة ، وليست عن عقد واعضاؤها اذن ليسوا سادة للشعب بل هم مجرد موظفين يعملون في خدمة الشعب . ولما كان اساس الحكومة قانونا يصدر عن الشعب فان اية حكومة تكون مؤقتة يستطيع الشعب ان يغيرها ، سواء بتغيير اعضائها او بتغيير شكلها في اي وقت يراه مناسبا . ثم استمر روسو في حديثه عن الدولة وعلاقة الافراد بها وتطرق لانواع الحكومات المختلفة التي ظهرت في التاريخ البشري . تحدث عن الديمقراطية والملكية مبينا انواع الضعف في كل من الحكومتين. يقول ان الملكية هي اقرب النوعين التحلل والفساد فقد يستبد الحاكم ويعيث فسادا ناسيا واجباته كحاكم له رعيته عليه ان يسهر لمصلحتها . اما النوع الاخر من الحكم وهو الديمقراطية يقول روسو ان الديمقراطية نظام سلمي حتى انه من العسير تحقيقه في المجتمعات البشرية . اذا تمشيا مع فلسفته التي تتمركز في الارادة العامة ينادى روسو بنوع من الحكم يستطيع كل فرد من افراد الشعب ان ينقده ويقوم اعوجاجه مباشرة بالاجتماعات ومناقشة اعمال الحكومة السياسية . مثل هذا النظام يصيبه التأكل والهوان والزوال اذا وقف المواطنون موقفا سلبيا من الحكومة تاركين لها الفرص للفساد والتحول عن الاختصاصات المخولة لها . فاذا يصر روسو على تكوين ولايات صغيرة يكون لكل فرد الحق ان يشارك في تشريع وتنفيذ قوانينها اذ ان هذا النوع من حكم الولايات هو النوع الوحيد الذي يحقق نظرية روسو في الارادة العامة .

من هذا النظام من الحكم الى حكم الولايات برزت فكرة الاتحاد . فمعنى الاتحاد اليوم في المجالات السياسية هي تلك الدول التي تتحد ولاياتها عن طواعية ورغبة بدون ان تتنازل او تعمي عن كينونتها وسيادتها وسلطانها وتعمل لانماء

وتطوير حكومة الاتحاد بما عندها من امكانيات اقتصادية وعلمية وطاقات بشرية .
ارجو الا نخلط بين الدولة الاتحادية Federal والدول المتفقة لا الاتحاد الاستقلالي (confederation) فالدولة الكونوفدرالية هي تلك التي لا تعتمد الولايات فيها على الولاية المركزية في تخطيط سياستها وسن قوانينها . فالسيادة في النظام الكونوفدرالي لحكومة الولاية بينما في الدولة الاتحادية الفدرالية فلكل ولاية سلطاتها وتشريعها متساوية مع اي ولاية في النظام العام . عرف التاريخ هذا النظام باتحاد حكومات المدن في اليونان اذ كان لكل قبيلة وقرية او مدينة تشاريعها ونظمها الخاصة منفصلة تمام الانفصال عن باقي المدن لاتجمعها الا المحن كان يغير على البلد عدو مشترك وقد تجلى ذلك في اتحاد كل المدن اليونانية في الدفاع عن ارضها والخلاص من الفرس الذين اناخوا على اليونان مدة من الزمان ليست بالقصيرة اذاقوهم فيها الوان الاستعباد والاستغلال .

اما عصرنا هذا فيعرف دولا اتحادية لها مظاهر شتى وانواع مختلفة فسويسرا دولة اتحادية مكونة من اثنتي وعشرين ولاية تخضع لمجلسين تشريعيين مجلس الشيوخ ومجلس النواب . كما ان هناك مجلس تنفيذي من سبعة اعضاء له السلطة في اختيار الرئيس ونائب الرئيس لمدة ثلاثة سنوات . وفي عام ١٨٦٧ وضع دستور صارت بمقتضاه امريكا الشمالي البريطانية دولة اتحادية . كما برزت دولة الكمونولث الاسترالية دولة فدرالية حسب دستور بدأ في تطبيقه في الاول من يناير عام ١٩٠١ م . كل هذه الدول الاتحادية السابقة تختلف اختلافا واضحا بينا عن الولايات المتحدة الامريكية التي تعتبر نموذجا للدولة الاتحادية في نظر معظم الكتاب السياسين اليوم . فبالنظر لاحكام الدستور السويسري على المحاكم ان تعتمد بجميع التشريعات الصادرة من قبل المشرع المركزي « المشرع لدولة الاتحاد » حين يكون من اختصاصها ان تقرر ان بعض تشريعات الكانتونات الدويلات او الولايات المنضمة الى الاتحاد السويسري بمخالفة لاحكام الدستور ، وهي لذلك باطلة لا يعتد بها . بينما سلطات المحكمة العليا في امريكا تشمل التشاريع الصادرة من الكونكرس الامريكي ايضا ، ولهذه المحكمة ان تحيل اي

تشريع صادر من المشرع المركزي الى قصاصة ورق بتقريرها انه مخالف للدستور الاتحادي . ثم ان نظام الحكم في الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية اتحادي ولكنه يختلف اختلافا بينا عن اتحاد افريقيا الجنوبية لا من ناحية النظرية الاقتصادية من كون احدهما يسعى لتطبيق النظرية الماركسية والثاني يتمسك بالنظام الراسمالي اشد التمسك فحسب ، بل ومن النواحي الدستورية الصرفة . والهند تكوّن اتحادا ولكنه اتحاد له ميزاته وخصائصه تختلف اختلافاً ظاهرا عن كل النظم الاتحادية المعلومة ، وكذلك الحال بالنسبة لاتحاد المانيا الغربية .

من ميزات النظام الاتحادي ملائمته للبلاد الكبيرة الشاسعة الاطراف ، ذات الاقاليم الجغرافية المتمايزة بعض التمايز . وهو اكثر تناسبا في حالة الدول ذات النظم السياسية المتباينة وذات المستويات الاجتماعية غير كاملة الانسجام . والنظام الاتحادي بعد ذلك اقرب الى روح العصر ، ففيه دعوة للتخصص ، بمعنى ان الدولة المركزية تختص بالشؤن الكبرى المتعلقة بكيانها الاساسي وسياستها الخارجية ووسائل دفاعها وشؤونها المالية والنقدية والاقتصادية الكبرى ، على حين تترك لحكومات الاقاليم الشؤون التي يغلب عليها الطابع المحلي او الاقليمي كالصحة والثقافة وتنظيم المدن والشوارع ، وما الى ذلك من مسائل اخذت تزداد يوما بعد يوم في الحياة العصرية ، بحيث اضافت الى مهام الدولة مهاما عديدة اخرى ما كان يحلم بها اكثر مفكري القرن التاسع عشر خيالا . واكثر من ذلك فان النظام الاتحادي يتناسق مع حالة الشعوب الكبيرة التي عانت من اختلاف انظمة الحكم وتباين الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية ، اذ نرى فيه وسيلة عملية متدرجة تقف وسطا بين الاستسلام للواقع الممزق والمثابة التامة التي تدعو الى الانصهار الكامل والوحدة التامة .

رغم عصرية ومثالية هذا النظام فهناك عقبات تقف في طريق تحقيقه تجعل من العبث اختياره كنظام للحكم . ولأستطيع ان اذكر بعض هذه العقبات رايت ان اركز على دولة الهند الاتحادية لما في هذه الدولة من تشابه بدولتنا في السودان . فعوامل الاستعمار والتأخر والعجز الاقتصادي وتعدد الاديان وتعدد اللغات

واللهجات كلها عوامل لها الاهمية في حياة الاتحاد بالهند كما انها تعمل في حياة شعبنا السوداني .

ظهرت فكرة الاتحاد في الهند بعد تقرير سيمون في مايو عام ١٩٣٠ الذى قدمه للحكومة البريطانية . وتبع ذلك التقرير اجتماع المائدة المستديرة الذى عقد في صيف ١٩٣٠ م الذى خرج حاضروه مقرين مبدأ الاتحاد كنظام سياسي للهند منضوية تحته الهند البريطانية والامارات المختلفة على ان يعطي الامراء الصلاحيات والحق لادارة اماراتهم . وعقد مؤتمر مائدة مستديرة ثاني في كراتشي حضره المهاتما غاندى الذى ساند مبدأ الاتحاد . وخرج الاعضاء المجتمعين مختلفين في تحديد سلطات مجلس التشريع الفدرالي ونسبة لعدم الاتفاق سند الامر للجان انبثقت عن المؤتمر لاعادة النظر في اماكن الخلاف . واجتمع الممثلون في مؤتمر ثالث في نوفمبر عام ١٩٣٢ م وخرج المؤتمر مقرا الهند دولة اتحادية على غرار النظام الاسترالي ان يكون للحكومة المركزية السلطات لسن قوانين في تسع وخمسين مسألة من ضمنها الدفاع والسياسة الخارجيـة والعملة والبريد والحكومات الولايات السلطات في سن قوانين في اربع وخمسين موضوعا .

وعند قيام الحرب العالمية تحالفت الهند مع بريطانيا في سبتمبر عام ١٩٣٩ م شريطة ان تعطى الهند حق تقرير المصير مباشرة بعد الحرب . بعد الحرب انتدبت الحكومة البريطانية السيد ستافورد كربس للبحث في موضوع استقلال الهند وفي اختيار جمعية تشريعية لوضع دستور حدد هيكله ، الذي يسمح للولايات المختلفة الانضمام او عدمه ، السيد ستافورد في خطابه الذي القاه في المؤتمرين . وعندمـــا اكتسح حزب العمال الانتخابات في يونيو عام ١٩٤٥ م ارسل مندوبين للهند لاعادة النظر في موضوع الاستقلال والدستور من جديد وفي الاجتماعات المختلفة طالب المسلمون ان تكون لهم ولايتهم المنفصلة «باكستان» ولا يمانعون من وجود دولة قومية واحدة وطالب حزب المؤتمر بعدم التجزئة ولفصم الخلاف بين الشقتين تدخل المندوبون الانجليز بقرار ان الهند دولة

اتحادية من الامارات والهند البريطانية وان يترك للولايات المختلفة السلطات التشريعية والتنفيذية داخليا . وبعد جهد جهيد كونت حكومة مؤقتة في ١٣ اكتوبر ١٩٤٦ م التي استمرت في السلطة الى ان انقسمت الهند الى دولتين منفصلتين تمام الانفصال في اغسطس عام ١٩٤٧ م عندما رفض المسلمون الاشتراك في الانتخابات للجمعية التأسيسية في يوليو عام ١٩٤٦ م .

بعد الانقسام اجتمعت الجمعية التشريعية للنظر في وضع دستور جديد للهند في اغسطس عام ١٩٤٧ م . وفي ٢٩ من نفس الشهر وضعت الجمعية التشريعية مسودة للدستور واعلنت بجميع وسائل الاعلان للمواطنين . وفي ٥ نوفمبر ١٩٤٨ م قدم الدستور للجمعية التأسيسة التعديلات اللازمة واقر الدستور نهائيا وصار معمولا به منذ ٢٦ نوفمبر ١٩٤٩ م . دستور الهند الجديد بتركيزه على الحكومة المركزية في سن وتنفيذ معظم القوانين يختلف عن معظم الدساتير الاتحادية . يحتوى الدستور على ثلاثمائة وخمسة وتسعين بندا مسجلة في مائتين واثني وسبعين صفحة . يرجع المعلنون السياسيون انفراد هذا الدستور بالتدقيق والطول لخوف الجمعية التشريعية من تباين المواطنين في الاديان مما قد يؤدى لخرق الدستور في حالة اصطدام القوى الدينية من هندوس ومسلمين . يطلق كثير من السياسيين على دستور الهند وبالتالي على الهند بعد اصدار الدستور دولة متحدة ولا دولة اتحادية لان الدستور شدد كثيراً على سلطات الدولة المركزية حسب خطة نهرو التي نادى بها في الجمعية التشريعية منددا عدم اهمية التركيز على الولايات بعد ان انفصلت باكستان . اعطيت الحكومة المركزية الحق في التشريع في سبع وتسعين مسألة من ضمنها الدفاع والسياسة الخارجية والامن العام والجنسية والبريد والعملة الخ كما اعطيت الولايات السلطة لتشرع في ست وستين مسألة من ضمنها البوليس وادارة المحاكم وهنالك سبعة واربعين موضوعا تشترك في سنها الدولة الاتحادية مع الولايات المختلفة كقوانين الجنايات والوراثة والزواج والطلاق الخ .

وما ان تكونت دولة الهند الاتحادية وما ان شرع في تنفيذ سياستها حسب

الدستور الموضوع الا وقوبلت الحكومة بمشاكل عدة تزداد كل يوم تعوق الدولة وتحقيق اهدافها في التحضر . اول تلك المشاكل حاجة الشعب الهندي بعد الاستعمار لحكومة مركزية قوية تستطيع ان تخرج بالبلد من بؤرة التاخر والفقر والمرض التي عاش مدة من حياته تحت الاستعمار الانجليزي . وان تستطيع الحكومة ان تجد حلولا ناجعة للمشاكل التي تبرز كل يوم والثاني تعمل على استفحالها عوامل الدين والعنصرية والاقتصاد والسياسة . فما ان اقر الدستور حتى سمعت الحكومة اصوات تنادي باصرار باعادة النظر في الدستور من جديد وتقسيم الهند من جديد حسب اللغة والدين والثقافة . فاصبحت الحكومة في خطر وكونت لجان مختلفة لها مكاتب دائمة للنظر في المشاكل التي تواجه الحكومة يوماً بعد يوم . من تلك اللجان المختلفة لجنة اللغات الاقليمية التي من مهامها النظر في طلب تقسيم الهند على اساس اللغات المختلفة وبعد درس وتمحيص لم تجد اللجنة اي مبرر لهذا القول . انما اشتد الاصرار من ناطقي التلقو في مدارس نجم عن ذلك تكوين ولاية اندهارا في عام ١٩٥٣ م .

واليوم تندلع المعركة من ولاية بومبي اذ تطالب مجموعتا المهراش والجيجلاتي بتقسيم ولاية بومبي لولايتين على اساس هذه اللغات الفرعية المختلفة .

وتبرز بعد ذلك مشكلة اخرى جماعة تنادي بتقسيم الهند على اساس الدين والثقافة ومن حاملي شعلة الحركة السيخ في البنجاب . لست ادري ما الذى يخفيه الزمن لدولة الهند من مشاكل لما عندها من لغات تفوق على الخمسة عشر لغة رسمية وثلاث اضعاف هذا العدد من اللغات واللهجات الفرعية .

لماذا يتمسك مواطنو تلك المنطقة وناطقو تلك اللغة بتقسيم بلدهم على اساس اللغات اي لماذا يكونون من لغتهم ولاية لها تشاريعها وقوانينها منفصلة عن باقي الولايات. المشكلة اقتصادية من جميع الوجوه ان انه اذا اعتبرت لغة الهند (Hindi) اللغة الرسمية للحكومة وهذا ما كان مخططا حسب الدستور اذا اقر ان تكون اللغة الانجليزية هي الرسمية حتى عام ١٩٦٤ م وبعدها تصبح اللغة

الهندية لغة الدولة الرسمية فثارت قبائل الجنوب وسمعنابانـاس احرقوا انفسهم احتجاجا على هذا القرار. وواجهت الحكومة مشكلة اخرى اشد خطر على حياة الاتحاد وذلك عدم الانسجام الماثل بين الولايات ففي الخطة الخمسية الاولى قبل ١٩٥٦ م اشتركت في ثلثي المنشئات حوالي العشرون ولايـــة من الثماني والعشرون ولاية التي تكون الاتحاد وفي الخطة الخمسية الثانية اشتركت الولايات باقل من خمسين في المائة من التكاليف.

يعزى المعلقون السياسيون عدم الانسجام هذا للنواحي السياسية . فقد يكون الحزب الحاكم في الولاية المركزية حزب مغاير للحزب الحاكم في اي ولاية من الولايات المختلفة ففي هذه الحالة يكون من الصعب التوفيق بين الحكومتين اذ اي حكومة لها تخطيطها الداخلي الخاص فاى تدخل قسرى من جانب الحكومة المركزية يخرق اهم بنود الدستور. لقد صرح وزير الحكومة وهو من ولاية كيرالا ان الحكومة المركزية تحاول عزل ولايته عن الاتحاد لانها تخضع لحكم الحزب الشيوعي.

ويعلق السياسيون ان هذه المشكلة قد تزداد خطورة واستفحالا بضعف حزب المؤتمر في الهند وازدياد قوة وتعدد الاحزاب في الولايات.

مشكلة الادارة العامة لا تقل عن المشاكل التي ذكرت من حيث قلة الاداريين والخبراء الاكفاء في الهند عامة وبالتالي في الولايات . ولكن يشتد الضغط على الولايات من الحكومـــة المركزية باغرائها للاداريين في حكومات الاقاليم بالرواتب العالية والشهرة . اذا تعطل النمو الاقتصادي في الولايات رغم محاولة الحكومة المركزية تقسيم الاداريين على الولايات.

مع كل هذه المشاكل مجتمعة تنخر في نظام الحكم الاتحادى في الهند تعمل مشكلة حاجة البلد للقيادة الواحدة التي تستطيع بقوة الشخصية وشهرتها ان تجمع كل الولايات نحو الهدف المنشود. لقد كانت لشخصية الباندیت نهرو وحزب المؤتمر الهندي اللذان وقفا رغم الاعاصير لتوحيد الهند في دولة لها المكانة في

في جميع المحافل الدولية . انا لا افقد الثقة ولا انتقد الرئيس الحالي للهند وانما اشير لعامل من عوامل تقدم وتقهقر بلد من البلدان بقوة او ضعف رئيسه .

أخيرا ارجو من معلقيناوزعمائنا السياسيين في السودان ان يستفيدوا من تجارب الدول قبل ان يقرروا مصير امة تصبو للتحضر والتسابق مع دول العالم في جميع مجالات المنافسة العملية والحضارية . فالدارس لحالة السودان الاجتماعية والسياسية يجد ان جميع هذه المشاكل التي تعيش فيها الهند تعمل اليوم في السودان متجلية في مطالبة اخواننا في الجنوب حاملين السلاح منادين بالانفصال وجماعة تنادي بالاتحاد . حجة اخواننا الجنوبيين ان الجنوب ينفصل عن شمال السودان ثقافيا وحضاريا اذن يجب ان تكون دولة اتحادية هذا ما نادى به الجنوبيون قبل الحكم العسكري . اما في مؤتمر المائدة المستديرة الاخير في عام ١٩٦٥ ظهرت فكرة الانفصال لاول مرة بين المؤتمرين الجنوبيين . اذا قلنا بالاتحاد فعلى اى وجه يقسم السودان هل يكفي ان يكون السودان شمالا وجنوبا ودولتين اتحاديتين لن يكون هذا الحل الاخير للمشكلة اذ ظهرت في البرلمان الاخير تجمعات في البرلمان تنادى بانفصال الشرق واخرى تنادي بانفصال الغرب واخير سمعنا بحوادث في جبال النوبة وهي منطقة تقع شمال المنطقة التي حملت السلاح من اجل الاتحاد او الانفصال وهي الجنوب . اذن من الارجح ان نقول بتكوين السودان دولة اتحادية من تسع ولايات واضعا كل مديرية من المديريات الحالية ولاية بنفسها . كل ولاية من هذه الولايات اذا كونت ستكون مكونة من عدة جنسيات ولغات فرعية . ففي الجنوب الذي يكون ثلاثة مديريات من التسع مديريات التي هي دولة السودان الحالية في هذه المديريات الثلاثة عدد لا يحصى من اللغات الفرعية التي تفقد الايجدية مما يجعل من الصعب التفاهم بين السكان . اذن يكون من العسير والعبث ان نكون ولايات منفصلة من الثلاثة مديريات الجنوبية ! اذن هل نقسم الجنوب من حيث اللغات واللهجات الفرعية ؟ وهذا يجعل من كل قرية او مدينة ولاية بنفسها لتعدد اللغات واللهجات .

أما المشكلة السياسية هي انه يوجد في السودان ما يزيد على السبعة عشر حزبا

لها برامجها وتخطيطاتها السياسية المختلفة . اظهرت الانتخابات الاخيرة ان بكل مديرية من المديريات المختلفة حزب له مطلق الاغلبية. وفي مديرية النيل الازرق والخرطوم لحزب الوطني الاتحادي الصدارة اما في مديريتي كسلا والشمالية يغلب حزب الشعب الديمقراطي على باقي الاحزاب . وفي الجنوب جبهة الجنوب هي الحزب الغالب . اذن اذا جعلنا من المديريات المختلفة ولايات في الدولة السودانية الاتحادية سوف نواجه بنفس المشكلة التي واجهتها الهند قبلنا .

أما المشكلة الاقتصادية سوف تكون من اعنف المشاكل التى سوف تجعل من دولتنا صيدا سهلا للطامعين الاجانب . فالولايات المتحدة الامريكية التي ينجح فيها هذا النظام لكل ولاية الكفاية الاقتصادية ان تقوم بمتطلباتها الداخلية من تعليم وصحة الخ ... أما نحن في السودان يتمركز الدخل في مديريتي النيل الازرق والخرطوم فسوف يكون من العسير على باقي المديريات ان تقوم بحاجياتها .

الخص قولي هذا ان وضعنا الحالي في السودان جدير بالبقاء وخاصة نظامنا الاداري متسما باللامركزية فعندنا في السودان تسع مديريات لكل مديرية مكاتبها الادارية المركزية تابعة لها عدد من المراكز . ومع المراكز عدد من المجالس الريفية والبلدية . هذا النظام في حد ذاته اتحادي الشكل يتمشى مع روح العصر في التخصص وتقسيم العمل . فاذا سعت حكومتنا الوطنية بزيارة عدد المجالس البلدية حتى يكون في كل قرية مجلس قرية بدلا من العمد والاداريين الاصليين فسنكون قد سعينا نحو الاتحاد حافظين قوة مركزنا عسكريا في حالة اي عصيان داخلي ويذود عنا اذا طمع فينا طامع . فاذا بلا مركزية التعليم والادارة سوف تحل مشاكل كثيرة وسوف نسعى بوطننا نحو الرقي والكمال .

ارجو ان اتنحى عن الموضوع في هذه الساعة اذ انا لست بمخطط سياسي ولا مشرع استطيع ان احدد مراميه في هذه الساعة وفي هذه الوريقات المتواضعة فلذا اترك الموضوع للسياسيين في بلدنا يقلبوا جوانب الموضوع بعد درس ولو كلفنا

ذلك الكثير من الزمن والمال والله الموفق لما فيه خير امتنا .

المراجـع

١ – **تراث الانسانية** – المجلد الاول – ص. ٥٦٩ – ٥٨٨

٢ – **الدولة الاتحادية والدولة الموحدة** – عبد الرحمن البزاز – دار القلم –

٣ – **الدولة في النظرية والتطبيق** – هارولد لاسكن – ترجمة كامل زهيري

٤ – The Federalist or the New Constitution

Hamilton Madison Gay, ترجمة جمال محمد احمد.

٥ – Federalism in India, Benjamin N. Seheonfeld.

محمد احمد المهدي بعد موقعة أبا

محمود عبدالله برات

كلية الاداب والعلوم – علم النفس

في ثاني كتاب من هذه السلسلة الدورية التي يخرجها اتحاد الطلاب السودانيين في لبنان بغرض التعريف بالسودان كتبت مقالا عن الامـــام محمد احمد المهدي موحـــد السودان ومحرره . وكان مقالي تحت عنوان « محمد احمد المهدي حتى واقعة أبا » وقد وعدت القارىء الكريم ان أقدم له الامام المهدي حتى وفاته في مقال لاحق . واليوم قد اتيحت لي الفرصة للكتابة وتنازعتني الرغبة بين تكميل ما بدأت ووعدت وبين الكتابة في موضوع آخر عن الاحـــداث الجسام التي اجتاحت السودان وتجتاحه منذ قيام ثورة الحادي والعشرين من اكتوبر المنصرم. وبعد تقليب في النظر فضلت التقيد بوعدي للقارىء الكريم وعزمت على تكميل ما بدأت .

قد عرف القارىء الكريم مولد الامام المهدي في احضان البساطة والتواضع وعرف تعليمه الديني الخالص ونزوعـــه الى مجالدة النفس وارغامها على طريق الصلاح حتى استلذته وعشقته فعاشت به وماتت عليه . كما تتبع القارىء الكريم نزوع الامام المهدي الى العبادة المبينـــة الخاشعة والدعوة الى الله في غير هوادة وقوة الحجة والمعرفة الثاقبة بمعادن الرجال وتتبع القارىء الكريم كيف ان الامام المهدي الح على موقفه من المهدوية وابى الانقياد امام مبعوث الحكومـــة

للخرطوم . وكيف انه اعد العدة لمجابهة نتائج رفضه الانصياغ لامر الحكومة . وكيف ان الحكومة بادرته بالقوة فهزم جندها في القليل من جماعته المؤمنة وقد كان ذلك في الثاني عشر من اغسطس سنة ١٨٨١ في واقعة أبا .

وبارتفاع الراية مكتوبا عليها « لا اله الا الله محمد رسول الله احمـــد المهدي خليفة رسول الله » ، وبتجريد السيف في وجه جنود الحكومة اشتعلت الثورة المهدية في وجه الحكم التركي — المصري الغاشم . وعلم الامام المهدي ان الحكومة لن تقف مكتوفة اليدين امام ثورة مسلحة وانها لا محالة مهاجمة الثورة في جزيرة أبا . وعلم المهدي ايضاً ان جزيرة ابا لا تصلح قاعدة عسكرية تنطلق منها ثورة مسلحة وذلك لقربها من الخرطوم ولموقعها على النيل مما يمكن بواخر الحكومة من الوصول اليها . وعليه فقد قرر الامام المهدي ان ينصرف الى مكان امين بعيد يدير من عنده دفة الثورة . فوقـــع اختياره — وفي اغلب الظن بمشورة من الخليفة عبدالله التعايشي — على منطقة جنوب شرقي كردفان . وقبل ان يبدأ الامام المهدي هجرته عن أبا اوكل احمد وعمر المكاشفي على منطقة الجزيرة . وكان الانسحـــاب الى كردفان في نظر الثوار امتداداً للنصر الذي احرزوه في أبا وتعزيزا له . ليس هذا لاستراتيجيته الحربية وحسب بل لما فيه مـــن اقتداء بالرسول ﷺ . وما كانت هجرة الرسول ﷺ الا فتحا مبيناً .

علمت الحكومة بتحركات الامام المهدي غربا وكلفت محمد سعيد باشا حاكم كردفان لتتبعه والقضاء عليه . وفعلا خرج محمد باشا على رأس قوة كبيرة من الابيض وبدأ في مطاردة الامام المهدى . ولكن وعورة الطريق وعداء القبائل لقوات الحكومة والرهبة من الثائر جعلت محمد سعيد باشا يعدل عن مطاردة الامام المهدي ويعود الى عاصمته الابيض بسلام . وواصل الامام المهدي هجرته دون تدخل من قبل الحكومة حتى حط رحاله في جبل قدير في مخابيء جبال النوبة في كردفان .

وفي قدير تمركزت ثورة الامام المهدي وحجبها عن مراكز الحكومة في

الخرطوم البعد السحيق والوعورة المهلكة وموسم الامطار الذي تستحيل معه تحركات الجيوش . وقررت الحكومة الانتظار حتى نهاية موسم الامطار وكلها امل ان ينشق الثوار على قائدهم ويتفرقوا عليه فتهون ابادتهم . اما في معسكر الثوار فكان موسم الامطار مجالا للراحة من مشقة الهجرة وللتنظيم وتوسيع نطاق الثورة وزيادة جنودها من ابناء المنطقة ومن القادمين عليها من مختلف اطراف السودان . وهنا سمي المهدي اتباعه الانصار تيمنا بانصار الرسول صلى الله عليه وسلم وبلور حركته في قياداتها العسكرية وتبعياتها القبلية .

وبانقضاء موسم الامطار وبداية برد الشتاء وثبات الارض تحت اقدام الزحوف ارسلت الحكومة حملتها الثانية على الامام المهدي . خرجت الحملة من فشودة يقودها راشد بك حاكم فشودة . وكان جيشه من الجنود النظاميين ومن الاهالي غير النظاميين لاجراء عملية عسكرية سريعة تقضي على الثورة في مهدها. ولكن عيون الثوار المبثوثة جعلتهم يتتبعون تحركات راشد بك . وفي التاسع من ديسمبر سنة ١٨٨١ باغت الامام المهدي على رأس الثوار قوة راشد بك فسحقها سحقا تاماً .. وانتشر انتصار المهدي انتشار النار في الهشيم حتى بلغ كل القرى والمدن . والحقه الامام المهدي بمنشوراته تدعو المؤمنين ان يضعوا ما بايديهم وينصرفوا الى الجهاد في سبيل الله . فتقاطرت الى قدير اعداد غفيرة مبهورة بالامام القائد المنتصر .

وكان رد الفعل عند الحكومة التركية ـ المصرية كبيراً . فاعدت حملة اخرى كبيرة وجعلت قيادتها في يد قائد الحكومة المحنك يوسف الشلالي باشا . كما سحبت حاكمها على السودان رؤوف باشا وابدلته بعبد القادر علي باشا . واندفعت حملة الشلالي من الخرطوم في الخامس عشر من مارس سنة ١٨٨٢ الى الكوة على الضفة الشرقية للنيل الابيض . وكان على الحملة ان تنتظر وصول الامدادات من كردفان . وعندما وصلت امدادت كردفان وبلغ بها عدد جنود الحملة ٦٠٠٠ تحرك يوسف الشلالي باشا بجيشه مع النيل الى فشودة ثم عرج غربا قاصدا قدير .

وسبقت الحملة اخبارها للامام المهدى فبث لها العيون ، وترقبها . وفي فجر السابع من يونيو سنة ١٨٨٢ فاجاهم الامام المهدي من كمين منيع فلم يبق منهم شيئاً . وكانما جاءوا ليسلموا الامام المهدي الوفير من العتاد والذخيرة والمؤن . وكان هذا الانتصار الثالث للمهدي واهم انتصاراته واكبرها . وشاع بين السودانيين ان الامام المهدي ما لقي المصريين الا هزمهم هزيمة منكرة ونهائية ومعجزة . وعليه فمن كان يقعده عن مناصرة الثورة والانضمام اليها شك في مهدوية الامام او خوف من هزيمته او رهبة من هيبة الحكومة. فقد صدق بفعله دعواه وحقق عن الهزيمة النصر الكبير ووضع هيبة الحكومة وجنودها في الوحل . فلا مجال للشك في مهدويته ولا الخوف من هزيمته ولا الاكبار لهيبة الحكومة وجندها . فتهدرت سيول الوافدين الى قدير تحرض على الجهاد المحبب لذاته كمصير للجنة والمحبب لنتائجه الباهرة من نصر وعزة وسعادة في هذه الدنيا . وكنتيجة لابادة حملة الشلالي بدات الثورة تشتعل في اطراف اخرى من السودان . ففي نهاية شهر مارس ضرب اولاد المكاشفي سنار وحاصروا جنود الحكومة في ثكناتهم . ولكن ثورة اولاد المكاشفي في الجزيرة لم تحقق انتصاراً كبيراً اذ ردتها الحكومة عن سنار وعن ابو حراز . اما في كردفان فتمدد لهب الثورة الى مناطق اخرى. فقد احتل الثوار نقطة الحكومة في عشاف وحاصروها في البركة .

وللمرة الثانية تتضخم ردة الفعل عند الحكومة ولكن دون نتائج مثمرة . فقد وصل عبد القادر حلمي باشا للخرطوم وتسلم مهام منصبه ونشط نشاطا كبيرا ليتلافى الفقد الكبير في جنود الحكومة والذي حدث كنتيجة لابادة حملة الشلالي . وقد افلح في ذلك كثيرا اذ جمع ودرب اثني عشر الف جندي وبدا في تحصين الخرطوم . واخذ يتدبر امر الابيض عاصمة كردفان التي اصبحت اقرب هدف للثوار . وبدا موسم الامطار ليضعف نشاط الحكومة لكبر تحركاتها وليساعد الثوار في تدبير شانهم . وفور نهاية موسم الامطار تحرك الامام المهدي عاجلا الى اهدافه الجديدة الابيض وبارا لتتم بسقوطها هيمنته التامة على غرب السودان. فبسقوطها يستولي على كردفان تماما ويجعل دارفور تحت رحمته لفصلها

عن الخرطوم . واذا ما تمت له السيطرة على دارفور و كردفان بمواردهما البشرية الغنية بالمقاتلين فلم تعد الخرطوم الا في منطق الاشياء . وفي طريقه الى الابيض اشخص فصيلة من الثوار احتلت الدلنج . وكلما تقدم الامام المهدي صوب الابيض كلما تضخمت قواته بفضل المنضمين اليها من ابناء كردفان ودارفور واللاحقين بها من مختلف بقاع السودان. وفي اوائل سبتمبر عسكر الثوار خارج الابيض وكانت الابيض عاصمة كردفان اغنى واكبر مدن السودان بعد الخرطوم. وفي داخل اسوار المدينة كان للمهدي العديد من المناصرين من كبار التجار ومن عامة الناس . اما محمد سعيد باشا حاكم كردفان الذي تخاذل عن مهاجمة المهدي في طريقة هجرته الى قدير فقد تجلى في الاعداد للدفاع عن نفسه ومدينته . فقد حصن المدينة باسوار خارجية واخرى داخلية بنيت حول مباني الحكومة وثكنات الجيش ومساكن كبار الموظفين . وعندما ارسل المهدي رسله يطلب الى محمد سعيد باشا التسليم قتل محمد سعيد باشا جميع الرسل . وبهذا العمل الغادر استطاع ان يرفع معنويات رعاياه المحاصرين الى حين ويظهر لهم نوعا من القوة حتى وان كانت غير كريمة . وبقتل رسل المهدي امر المهدي بالهجوم التام الكامل العنيف على اسوار المدينة . فتداعت اسوارها الخارجية امام ضربات الانصار ولكن رغم حسن البلاء والشجاعة والاقدام المنقطع النظير فقد استطاعت جنود الحكومة المحتمية بالاسوار الداخلية ان ترد الهجوم وان تلحق بالانصار الخسائر الفادحة . وكان موقفا زاخرا بالدروس وبرهن الامام المهدي على مقدرته لاستيعاب تلك الدروس . فامر بايقاف الهجوم وبعدم اعادته وان لا تهاجم المدن المحصنة التي تحملها القوة النارية بل تحاصر وتجوع حتى الاستسلام . وفعلا احكم الحصار على الابيض وعلى بارا وتركهما تجابهان الجوع .

وعندما علمت الخرطوم بحصار الابيض وبارا ارسلت وعلى عجل حملة مكونة من ٣٠٠٠ مقاتلاً تحت قيادة علي بـــك لطفي الذي تابع النيل حتى الدويم ثم ضرب غربا في الصحراء تجاه الابيض . وعلم الامام المهدي بحملة علي بك لطفي وارصدلها العيون تحصي عليها حركاتها . وعندما توغلت الحملة في الصحراء انصرف اليها

الثوار يدفنون امامها الابار لتحارب الحر وهجير الصحراء والعطش المهلك وعندما ساءت حالة الحملة وانهارت معنوياتها وجدت غديراً من الماء في احد الغابات . فانصرفت اليه الجنود العطشى بطريقة نهمة مطرية . وفي تلك اللحظة هاجم الانصار الحملة من مكامنهم فلم يصل من فلولها الى بارا الا العدد القليل وكنتيجة لهزيمة علي بك لطفي وعجز الحكومة عن فك الحصار عن الابيض وبارا غير عبد القادر حلمي باشا من سياسته التي كانت تقتضي مقاومة المهدي بامكانات الحكومة في السودان وحده . فطلب من الحكومة المصرية ان تمده من القاهرة ب ١٠٠٠٠ جندي وان تترك محاولة انقاذ الغرب وتقضي على الثورة في النيل والجزيرة . وتحصر المهدي في الغرب بعيدا عن النيل حتى ينشق عليه اتباعه ويتفرقون من حوله . وبهذه السياسة ترك الابيض وبارا لمصير محتوم . ففي الخامس من يناير سنة ١٨٨٣ سقطت بارا على يد الامير عبد الرحمن النجومي واوهنت اخبار سقوطها عزيمة المدافعين عن الابيض فحذوا حذوها في السابع عشر من يناير . وكان استسلام الابيض فتحا مبينا على الثوار فزاد سلاحهم وذخيرتهم وتسلموا زمام غرب السودان كله .

اما في الخرطوم فقد تعزز موقف الحكومة في الجزيرة اذ اطفأت نار الثورة في معتوق وفي سنار . كما عززت نقاطها العسكرية في بقية الجزيرة . وفي فبراير ١٨٨٣ بدأت نتائج اقتراحات عبد القادر حلمي في الظهور . فقد وصل عدد من كبار المسئوولين المصريين والضباط البريطانيين للخرطوم . وسحب عبد القادر حلمي عن السودان ووضع مكانه علاء الدين باشا حاكما على السودان وكان على الحكومة ان توجه المهدي برجال جدد وعزيمة جديدة . وكنتيجة لانتصارات الحكومة في الجزيرة قرر هكس باشا القائد العام لجيوش الحكومة المصرية في السودان ان يهاجم الامام المهدي في مأمنه في كردفان ويقضي عليه . فخرج هكس على رأس ١٠٠٠٠ جندي تجمعوا في الدويم على الضفة الغربية للنيل الابيض وعلى بعد ١٣٠ ميلا جنوبي الخرطوم. وفي السابع والعشرين من سبتمبر ١٨٨٣ تحرك الجيش غرباً ضاربا في الصحراء نحو كردفان . وما توغل الجيش في الصحراء الا وتبعه

الانصار يعيدون خطتهم مع علي بك لطفي . وكان اول اسلحة الانصار ضد هكس باشا ان نثروا مناشير المهدي تدعوا المسلمين من الجنود ان يسارعوا الى معسكرات الثوار ليفروا بانفسهم من الموت المحتوم اذا لازموا هكس وجيش الحكومة . كما اخذ الانصار يدفنون في طريق الجيش الابار ويناوشونه من وقت لاخر . ولكن الجيش استطاع من جر ثقله في وجه كل الصعاب حتى وصل «علوبة» . وهنا ارسل الامام المهدي الامير عبد الحليم والامير ابو قرجة على رأس ٣٠٠٠ رجل من الانصار على ان يتتبعوا هكس ولا يلتحموا به . وعندما لامس الامير عبد الحليم طلائع هكس ارسل رسله للامام المهدي يخبره ويطلب التعليمات . كما أرسل الامير ابو قرجة ليستنفر القبائل المجاورة . وقد نجح الامير ابو قرجة في استنفار القبائل وجاء بين جموع فرسان قبيلة «الجمع» يرأسهم شيخهم عساكر ابو كلام . واستمر الامير عبد الحليم في تتبع جيش هكس واختطاف الرجال من مؤخرته وشن الغارات الصغيرة عليه . وبهذه الطريقة اضعف الامير عبد الحليم معنويات جيش هكس والزمه لحمل الكميات المثقلة من الماء لما دفن في وجهه من الابار ولما جعل من النقاط العسكرية عند مياه خور ابو حبل الجارية حتى يقطع على هكس طريق الرجعة . وعندما وصل جيش هكس الرهد ذهب الامير عبد الحليم للابيض لمقابلة الامام المهدي وتعريفه بكل شيء عن الجيش وحالته . وهنا امر الامام المهدي الانصار ان يلحقوا بجيش الامير عبد الحليم في الرهد لملاقاة هكس . وبعد تدفق سيول الثوار على الرهد التحق الامام المهدي بهم وقرر الالتحام بجيش هكس واخذ يتحين لذلك انسب الفرص . وفي يوم الاثنين الرابع من نوفمبر هاجم الانصار مؤخرة الجيش والحقوا بها الخسائر الكبيرة وفصلوا عنها حملة الماء التابعة للجيش . ولكن الجيش استطاع ان يرد الانصار عن مؤخرته . وقد ساعد الجيش في هذا الهجوم الاول ما وجده من غابة كثيفة كانت تحمي ظهره عن الانصار . وفي اليوم الثاني (الخامس من نوفمبر) تخلص الجيش من جوف الغابة الى سهل فسيح يدعى سهل « شيكان » . ونظم نفسه في صورة مثلث يتقدمه هكس وضباطه وتتوسطه الجمال والبغال والخيل .

وحين تحدر جيش هكس الى السهل كان الامام المهدي يختتم صلاته بمجموع الانصار الغفيرة المتراصة . فامر المهدي الامير عبد الرحمن النجومي بمهاجمة مقدمة الجيش وامر بقية الامراء بمهاجمة مؤخرته . وما هي الا ساعات قلائل حتى اختفى جيش هكس من الوجود وكانما ابتلعه سهل شيكان . ولم يبق في الاسر من ال ١٠٠٠٠ مقاتل في جيش هكس الا ما يقدر بمائة . ولم يفقد المهدي من ٢٠٠٠٠ من الثوار الا ما يقدر بمئتي شهيد .

وبابادة جيش هكس وسقوط كردفان ضاق الحصار على مدن دارفور . فاسلم سليطين باشاحاكم دارا النمساوى ليضمن ولاء ضباطه وجنوده كما ارسل محمد بك خالد زقل للمهدي ليعلن ولاءه . وعاد زقل اميرا على دارفور من قبل المهدى فما كان من سليطين باشا الا ان سلمه بارا في الثالث والعشرين من ديسمبر ١٨٨٣ ووضع نفسه في خدمته لمصلحة الثوار . وتبع بقية حكام دارفور طريق سليطين فسقطت جميع مدن دارفوار دون قتال . وبسقوط دارفور اهتز الجنوب تحت اقدام لبتون بك وامين باشا حكام بحر الغزال والاستوائية . كما نقل الياس الى حكام الخرطوم والقاهرة ولندن .

وامام هذه الاحداث ما كان لمصر الا الرضوخ. وبعد احداث عديدة ومعقدة يضيق بها هذا المقال وتخرج عن حيزه ارسل غردون باشا من لندن في ١٨/ ١ ١٨٨٤ الى القاهرة ليعين حاكماً على السودان ويكلف بمهمة اخلائه . وتتعقد الاحداث بشأن مسؤولية الحكومة البريطانية عن مهمة غردون في الخرطوم ويزيدها تعقيداً شخصية غردون ومزاجه الشخصي واعتداده بنفسه . فأخذ غردون في نشاط عريض الزم فيه نفسه ان يضع السودان في وضع مستقر قبل اخلائه . وبلغ به غروره وجهله بطبيعة الثورة وقائدها ان طلب المهدي ان يكون حاكماً على كردفان من قبل الحكومة . وما كان رد المهدي الا ان ارسل له هداياه وطلب اليه ان يسلم ويسلم الخرطوم . فلم يزده هذا الطلب الا صلفاً وتعالياً واستهانة بالثوار وهو في غمرة الاخذ والرد مع مصر والمندوب السامي البريطاني حينما بدأت طلائع الثوار تتحدر من كردفان نحو الخرطوم . وفي

الثاني عشر من مارس سنة ١٨٨٤ وصل الامير محمـــد الطيب الباسر على رأس ٤٠٠٠ مقاتل ليقطع غردون عن الاتصال بالشمال صوب القاهرة . ثم وصل الامير ابو قرجة وحاصر الخرطوم . وفي مارس سيطر الثوار على ضفة النيل الازرق الشرقية واخذوا يطلقون النار على قصر غردون عبر النهر . فبدا غردون في اكبار قدر الثوار قليلا قليلا والتخلي عن الاستهانة الهازلة بشانهم . واخذ في تحصين الخرطوم تحصينا منيعا واستنفذ من فيها وبدأ في تدريب المتطوعين . ولم يكن الثوار باقل منه نشاطا والحاحا في مأخذ الحد . فقد ضيقوا الخناق على الخرطوم باسقاطهم فداسي وبربر . فازداد بهما عتاد الثوار ومؤنهم ورجالهم . كما خسر غردون بسقوط بربر طريق الاتصال بالقاهرة . وبانقضاء شهر رمضان ارسل الامام المهدي من الرهد الامير عبد الرحمن النجومي على رأس جيش كبير ليتولى قيادة حضار الخرطوم . وبعد وصول الامير عبد الرحمن النجومي الى الخرطوم لحق به الامام المهدي ذاته على رأس ٦٠٠٠٠ مقاتل . وهنا شعر غردون بضرورة استنفار بريطانيا لمجرد انقاذه فارسل السفن التي انتهى بها المطاف في (ابو احمد) حيث قتل رجالها . ولكن لم تعوز غردون وسائل الاتصال بالقاهرة ووصلته البشر بارسال حملة الانقاذ له ولمن معه . فاطلق غردون مائة وواحد طلقة من مدفعيته فرحا وتحديا . وارسل بواخره النيلية لتوصل حملة الانقاذ على عجل من شندى . ولكن حصار المهدي وصل غايته في اكتوبر حين كتب الامام المهدي خطابا ثانيا لغردون يطلب اليه الاستسلام . وما كان من غردون الا ان هدد المهدى بوصول الجنود الانجليز وانه يستحيل عليه هو « غردون!» ان يتحدث الى«محمد احمد!.وما على محمد احمد«الا ان يتقدم . فتقدم الامام المهدي في ١٢ نوفمبر وشن اعنف هجوم له منذ بداية الحصار . وكان الهجوم على قلعة ام درمان . ودافعت القلعة عن نفسها دفاع المستميت تدعمها مدفعية غردون عبر النهر ومن على البواخر النيلية وخاصة الباخرة الاسماعيلية » . ولكن رغم دفاعها فقد تمكن المهدى من فصل القلعة عن غردون في الخرطوم فصلا تاماً فلا اتصال ولا امدادات ولا ماء ولا غذاء

وليس للقلعة الا السجود تحت اقدام الثوار .

وبعد هذه المعركة اعترف غوردون في مذكراته التفصيلية ولاول مرة بقوة الانصار وقال عنهم اثبتوا اطوادا في وجه النار واصروا على الهجوم العنيد امام المدفعية وامام نار الباخرة الاسماعيلية . ولاول مرة سجل خوفه من سقوط المدينة في يد المهدي وقد كان يستبعد هذا الامر كثيراً . وعندما دب اليأس الى نفسه اشرق الامل من جديد اذ وصلت الاخبار تبشر بوصول طلائع حملة الانقاذ عبر الصحراء الى المتمة . وقد وصل ١٨٠٠ جندي من الانصار لردها او تعطيلها . وفي ابار ابو طليح التحم الجنود البريطانيون بالانصار حينما منع عليهم الانصار الماء . وكان قتالا رهيبا الحقـــت الكتيبة البريطانية بالانصار خسائر فادحة كما ارهقها الانصار وقتلوا فوق الخمسمائة جندي بينهم نائب قائد الحملة وحامل الرتبة الثانية فيها . وجدد الانصار الالتحام مع الكتيبة ولم يستطيعوا هزيمتها ولكن عطلوها .

سمع الامام المهدي اخبار معركة ابو طليح وعرف عن خسائره فيها فعزم على دخول الخرطوم قبل الكتيبة البريطانية القاصدة اليها . ونشطت المراكب تعبر النيل الابيض طول الليل بالانصار . وعند الفجر عبر الامام المهدي النهر وضرب المدينة . وتدفقت فيها سيول الانصار تحت الظلام كالعواصف الهوجاء . وما هي الا ساعات حتى سجدت الخرطوم تحت قدم الامام المهدي المنتصر . واصبح الصبح لتصل السفن النيلية تحمل الجنود البريطانيين الى الخرطوم . فاستطلع قائدهم من مجهره العلم المصري على سراي غردون فلم يجد له مكانا ووجد علم الثوار. ثم استطلع القصر فكشف له مجهره اثر الدمار. ثم استطلع الشواطىء فوجدها زاخرة بالرجال يعمدون الى صد البواخر عن الخرطوم . خرطوم الثوار الجديد . فقد سقطت الخرطوم وفصم رأس غردون المتعالي عن جسده المغرور وتسلم صهوة البلاد امامها الثائر المنتصر . وما كان للمستطلعين وسفنهم الا الفرار تلاحقهم النيران حتى الحدود . وكان ذلك في صبيحة السادس والعشرين من يناير سنة ١٨٨٥ .

وهنا جمعت الامة بعد شتات طال عليه الامد . وتحررت بعد عبودية دامت فوق الستين عاما . وانتصرت امام زحوف كم سامتها الذل والخسف والهوان . وتطلعت الى آمال جسام عندما اشخص الامام المهدي شيخه محمد الخير من بربر لمطاردة فلول المصريين والانجليز المدحورين واسقاط حامياتهم في اطراف البلاد. وفي لحظات التجمع الميمون والتحرر الغالي والنصر المؤزر والامل العذب والاعداد للغد المشرق المرتقب خطفت يد المنية امامنا الظافر المنتصر وهو لم يتجاوز الثانية والاربعين من عمر حافل بالامجاد . فهات بعد مرض مفاجيء وعاجل في الثاني والعشرين من يونيو سنة ١٨٨٥ .

الشلـــك

نمر سليمان سعد

كلية الاداب والعلوم – جغرافيا

في هذه المقالة اتعرض لحياة قبيلة من القبائل النيلية لجنوب جمهورية السودان . وهي ليست بالبحث المستفيض، وقصدت بها اعطاء فكرة للقارىء عن طبيعة جنس بشري من اجناس جنوب جمهوريتنا. ووقع اختياري على قبيلة «الشلك» بالذات لانني عشت بين اهلها اولا ولانها تمثل – مع اختلاف بسيط – حياة القبائل النيلية الاخرى ثانيا .

يعيش الشلك في مديرية اعالي النيل في جنوب جمهورية السودان ، ويحتلون الناحية الغربية للنيل الابيض في المنطقة الممتدة من فاشودة الى تونجة . وتنتشر بعض قراهم في الضفة الشرقية حول مدينة ملكال (عاصمة مديرية اعالي النيل) وجنوبها في الجزء الادنى لنهر السوباط . يصنف علماء الاجناس الشلك تحت ما أسموه بالقبائل النيلية ، وتشترك هذه القبائل في عدة مزايا من عادات وتقارب في اللغة والشكل والمعتقدات . ومن خواصهم سواد البشرة ، والطول الفارع . وقد رجح شفينفورث – من مفكري نظرية التطور ـ ان طول سيقانهم يلائم حياتهم في المستنقعات . اما تاريخهم فلا يعرف عنه الكثير . ويرى بعض المكتشفين انهم وفدوا لمنطقتهم الحالية من منطقة البحيرات في جنوب الوادي

(رودلف ، كيوجا ، البرت ، ادورد ، كيفو وفكتوريا) [1]

اما كرازولارا ، الدارس لعادات العنصر الذي ينتمون اليه ، فيظن انه ربما كان موطنهم الاصلي بالقرب من رمبيك الواقعة على الضفة الغربية لبحر الجبل ، ومنه هاجروا شمالا محاذين للنيل الابيض . ولقد بلغت بهم هجرتهم هذه حتى مدينة الذويم ولكنهم انسحبوا عنها تدريجيا جنوبا الى موطنهم الحالي . وكانوا ـ ولا يزالون ـ ذوي نفوذ وسطوة وعصبية . ففي سنة ١٥٠٤ م غزوا سنار ، وتغلبت عليهم قبائل البقارة ، [2] .

في سنة ١٨٦١ م ، وثاروا على الحكم المصري في السودان آنذاك وقاوموا تجارة الرقيق في قوة وبأس شديدين واضطهدوا تجاره. ولا يفوتنا ان نذكر هنا ان البطل الشهيد علي عبد اللطيف ، زعيم حركة الجيش الثورية ضد الاستعمار الانجليزي في سنة ١٩٢٤ م ، منهم واليهم .

يعيش الشلك في قرى مكتظة وبيوتهم عبارة عن (قطاطي) [3] مستديرة الشكل مبنية من الطين ذات سقوف مخروطة اتخذت من حشائش السافنا الغزيرة . وتسكن العائلة الواحدة في عدة (قطاطي) يتراوح عددها بين ثلاث او ست حسب عدد العائلة . وهي مبنية على شكل دائري وتختلف احجامها بحسب استعمالها . فقطية الطبخ مثلا صغيرة اذا ما قورنت بـ (واك) [4] البقر. وتقوم المراة باعمال الطبخ (والمريسة) [5] ، والزراعة وجلب الماء الى جانب نظافة البيت وتزيينه من الداخل . فتبلط الارضية وتطلي الجدران بالطمى وغالبا ما تحلى الجدران بالنقوش الزخرفية .

---

١ – تقع هذه في دول كينيا ويوغندة والكونغو ليوبولدفيل الان .
٢ – قبائل عربية جنوب مديريتي كردفان ودارفور .
٣ – جمع قطية
٤ – كلمة شلكاوية معناها الحظيرة .
٥ – غذاء يتخذ من الذرة وهو عبارة عن شراب مخمر .

وتتدلى من السقف قناديل الذرة التي تكون البذور للمحصول الجديد . وتبسط الفراء التي تتخذ من جلد البقر والاسود والنمور على الارض .

ولايختلف الشلك كثيراً عن الدينكا والنوير في طرق كسب عيشهم فنجدهم يعتمدون على تربية الابقار والزراعة وصيد الاسماك . واهم ما يميز اقتصادهم صبغته المعيشية التي تتصف بانهم ينتجون فقط ما يكفي حاجتهم . وهم كعادة النيليين يعلقون اهمية كبيرة على الابقار فهي اعـــز ما يملكون ولا يذبحونها او يبيعونها الا عند الضرورة القصوى وترمز عندهم للجاه والعز فيرد ذكرها في اغانيهم وتدفع منها المهور لاعراسهم . تاتي الزراعة المطرية في المرتبة الثانية بعد تربية الابقار لما تتطلبه من عمـــل شاق . فالمرأة تساهم فيها بالقسط الكبير من وقتها. أما رقع الارض المزروعة فصغيرة ومتفرقة بالقرب من القرى . ويزرعون الذرة والذرة الشامية مطريا أما التبغ والبطيخ والخضر فتروى ريا بدائيا برفع الماء من النهر بالشواديف [1] . او الجرار . ويأخذون الخضر والبطيـخ الى ملكال بقواربهم المصنوعة من سيقان نخيل الدليب [2] المنقورة او من عيدان (الطرور) [3] . الخفيفة الوزن مما يسهل حملها من القرية واليها . وتربط هذه العيدان بالحبال في صورة قارب على شكل مجوف . ومن المدينة يشترون ما يحتاجون اليه من الضروريات كالسكر والملح والقماش وغيرها . يعتبر الشلك من امهر صيادي السمك، يصطادونه بنوع خاص من الحراب والشباك والسنانير، ويكون جزءا من غذائهم ويتخذه البعض مصدر رزق لهم فيبيعونه في سوق ملكال .

لا شك ان هذه القبيلة لها نظمها الاجتماعية والسياسية والدينية الخاصة عدا

---

١ – جمع شادوف .

٢ – الدليب : نوع من الشجر من فصيلة النخيل والدوم ولكنه اطول منها بكثير ..

٣ – الطرور نبات عيدانه خفيفة تطفو على سطح الماء ..

القلة المسلمة والمسيحية فالسواد الاعظم منهم وثنيون . فالههم (فوك) خالق الكون القادر على كل شيء – يحيى ويميت . وهم يخضعون (للنيكوانج) وهو في اعتقادهم جدهم الاول والوسيط بينهم وبين الاله الاعظم (فوك). وتحل روح (النيكوانج) الجد في ملوكهم ولذا نجدهم يقدسون الملك (الرت) لصبغته الروحية . ويصل احترامهم وتقديسهم له درجة الركوع كلما وقعت اعينهم عليه . وزيادة على زعامته الروحية فهو رأس القبيلة الاول وزعيمها السياسي المطلق. يتمتع الملك بسلطات قضائية واسعة يساعده في ذلك الشيوخ الكائنون في القرى. وتعترف به الحكومة وتحميه تحت نظام الادارات الاهلية التابع للحكم المحلي في جمهورية السودان . يصل الملك للحكم عن طريق الوراثة ، وينتخبه الشيوخ من بين ابناء الملوك السابقين واحفادهم. من هذا نفهم ان ابن الملك نفسه ربما ابعد عن خلافة ابيه وانتخب محله ابن او حفيد لملك سابق . وكثيرا ما يتربص الاحفاد والابناء من سلالة الملوك لقتل الملك خلسة ليؤول لهم الحكم . فحياة الملك اذن دوما في خطر ولذلك تعزز الحكومة حراسته فتصحبه الشرطة في حله وترحاله. أما سلالة العائلات المالكة فتكون الطبقـــة الارستقراطية وتشمل في المكان الاول الملك (رت) واولاده الملوك (نياريت) واحفادهم (ني آريت) واحفاد احفادهم (كواني آريت) وكلهم لهم حق الملك كما تقدم . وتلي هذه الطبقة في الاهمية طبقة اطباء السحر (الكجور) وعملهم شفـاء المرضى بترديد التعاويذ واعطاء الوصفات من السوائل والبخور والتنبؤ بهطول المطر او انزاله بالتوسل والصلاة (للنيكوانج) ليعم الخير وتاتي الفائدة .

من ابرز ظاهراتهم الاجتماعية حفلات الرقص والغنـاء ، وتقام في مناسبات الحصاد والزواج ، والتأبـين والحرب . ويهتم الشلك باقتناء الحراب والدروع والعصى الغليظة. وتصنع دروعهم من جلد فرس النهر الذي يصطادونه بحرابهم. فعندما يسمع الشلكاوي قرع الطبول في منتصف الليل او عند الفجر معلنة حفلا راقصا في قرية ما يبدا في الاستعداد له ، فيجلي حرابه ، وينفض الغبار عـن درعه وعصاه ويتزين بلبس اساوره العاجية البيضاء والخرز الزجاجي ويـلف

وسطه بفرو نمر او اسد او غزال استعدادا للقاء فتاته في الرقص والتي تقوم من جانبها بنفس الاستعدادات وهناك يلتقي الفتيان والفتيات لقاء بريئا يؤدي بهم في الغالب الى الزواج . فبعد ان يتفق الفتى مع فتاته على ذلك يقومان بتبليغ اهليهما . بعد ذلك يبدا اهل الفتى بالخطوبة وتقدم الهدايا لاهل الفتاة وهي تتكون من الماعز والحراب وخطافات صيد السمك وعادة تستمر الخطوبة لعدة شهور او سنين يشرع بعدها في الزواج . أما بعد الزواج فيدفع المهر من قطعان الابقار التي يتراوح عددها بين العشرة والمائة حسب وضع العائلة المعيشي . ومن طرائف الامور ان اهل الفتاة يجوز لهم استعمال مهر بنتهم في تزويج اخيها. أما اذا حصل الطلاق فللزوج الحق في استرجاع ما دفعه من قطعان .

المراجع

١ – الدكتور رزقانة ، **الجغرافية البشرية لحوض النيل ، ١٩٥٦ .**

٢ – الدكتور نسيم نقار ، **الرحالة في السودان ، ١٩٦١.**

٣ – محمد ثابت ، **جولة في ربوع افريقية ، ١٩٣٦ .**

٤ – K. M. Barboor, The Republic of the Sudan, University of London Press, London, 1961.

« الشعراء التقليديون امام التحدي »

شكر ابراهيم محمد احمد
كلية الاداب والعلوم

اقصد بالشعراء التقليديين طائفة من الشعراء السودانيين الذين عاشوا في الربع الاول من القرن العشرين واستلهموا الشعر وربما المضمون من الشعر الجاهلي وشعر صدر الاسلام واقصد بالتحدي الاستعمار الدخيل الذي كان يحكم البلاد في ذلك الوقت . ويجدر بنا ان نذكر بان ظاهرة التقليد لم تكن قاصرة على الشعر في السودان في الربع الاول من القرن العشرين وانما كانت طورا مرت به جميع الدول العربية وعلى سبيل المثال نذكر احمد شوقي في مصر ومعروف الرصافي في العراق .

الدافع الاساسي للتقليد في السودان هو التشبث بالعروبة والاسلام امام الاستعمار الغربي الذي استباح الديار باسم الحضارة واستعبد الشعوب باسم رسالة المدنية ذلك الاستعمار الذي شوه الحضارة الغربية امامهم ووضعهم في موقف سلبي منها . وكانت ردة الفعل امام التحدي هي الوقوف في وجه الحاضر المؤلم والرجوع الى الماضي من أجل ان يتحسسوا سبيل الخلاص. واذا كان الجهل قد ضرب اطنابه في حاضر هؤلاء الشعراء حتى تعسرت الرؤيا الصادقة فلا بد ان يجدوا في ماضي تراثهم بصيصا من النور يزيل الغشاوة والضباب . واذا كانت العبودية التي فرضها الاستعمار على اهل السودان قد وضعتهم امام التحدي فقد

كان هناك الشعراء الذين واجهوا التحدي .. بنفس التحدي .

وقد اثار الشعراء المقلدون روح الوطنية ضد الاستعمار وحاولوا بعث روح العروبة والاسلام في بلد يحاول الاستعمار — ومن خلفه الابواق — ان يطمسوها ويحجبوا جذوتها باكوام من الرماد . وقد وجد هؤلاء الشعراء في العروبة عزة النفس (ولا اقصد بذلك ان عزة النفس من شان العروبة فقط ، فانا ضد كل النعرات العرقية) لان العزةعبر التاريخ كانت جزءاً من نفسية العربي ... وكان من الطبيعي ان يلوذ الشاعر بالاسلام لان الاسلام يمثل لهم دين العزة الذي رفض الخضوع والمسكنة . وكل الشواهد التي سنوردها فيما بعد تكشف عن هذه الروح التي وضحنا ملامحها .

الشعراء الذين نحن بصددهم هم محمد سعيد العباسي (ولد عام ١٨٨١) ، وعبدالله البنا (ولد عام ١٨٩٢) وهم من خيرة الشعراء المقلدين ولولا ضيق المجال لتناولنا غيرهم من الشعراء الذين طرقوا نفس المعاني وخاضوا نفس الميدان وعاشوا في نفس الاتون من الحرارة وصادق الوجدان .

ولا بد لنا ان نعرف موقف هؤلاء الشعراء من الاستعمار والحضارة الغربية وكيفية تناولهم الموضوع . ولئن كان موقفهم العام من الحضارة الغربية سلبياً فالسبب يرجع الى الصورة المشوهة التي قدمها الاستعمار عن الغرب وعن القليل الغث الذي قدموه في تلك الحقبة . هنا مثلا الشاعر محمد سعيد العباسي يصف حضارة الغرب كما رآها ويطالب قومه بالابتعاد عنها ما دام وراءها مطامع ويوجه كلامه للمثقفين العصريين الذين نهلوا من العلوم الغربية : —

انبذوا هذه التي زفها الغرب لكم من حضارة براقه
هل نسيتم مطامع الغرب فيكم ام جهلتم ياقومنا ارهاقه
واتى ما اتى فكم حرمات ما رعاها وكم دم قد اراقه

والحق يقال ان الاستعمار قد شوه امامه صورة الحضارة الغربية فلم يعطه منها الا القليل المشوه وحجب عنه كل التراث الانساني وهـذه هي الصورة التي رآها من المستعمر :

نزلوا منزل المسود منـا ثم شهروا على الضعيـف وثاقه
فرضوا قادرين على من مات منـا ضريبـة وبطاقـه
فغـدا الاقوياء ضعفى واض حى ذنبا من كان انف الناقه

وبالرغم من هذه الصورة البشعة لم يكن الشاعر متعصبا ضد الحضارة الغربية ولكنه كان يعرف ان المصيبة انما جاءت من الذين استغلوا الحضارة كما استغلوا الشعوب ، اولئك الذين ضيعوا فضل الحضارة والعلم :

عجبت لابناء الفرنجة كم عتوا وكم ضيعوا فضل الثقافة والعقل
اتو من طريق العلم كل تليدة وجاروا فكان العلم شرا من الجهل

ويخاطب الشاعر المستعمرين بانه ايضاً كانت له حضارة :—

قم ذكر القوم بالماضين مـا فعلوا واذكر لهم كيف كانت دولة العرب
واذكر امية واذكر مجـد هاشمها والمنعمين بـني حمدان في حلب

ونلاحظ هنا عودة الشاعر الى ماضيه التليد وخص بالذكر بـني امية الذين اتسع في عهدهم الفتح الاسلامي ودولة بني حمدان التي حاربت الروم دفاعا عن الحدود العربية واظنه هنا قد تاثر بابي الطيب المتنبي ـ شاعر سيف الدولة ـ الذي وصف دولة بني حمدان في حروبها ادق وابلغ وصف واشاد بها وبامجادها ايما اشادة .
ويجد الشاعر راحته النفسية عندما يذكر ايام الراشدين :

جزى الله عهد الراشدين وتربة سمت بالعصاميين عمرو وخـالد
ائمـة خـير ما استباحوا كر امة لجار ولا خانوا حقوق معاهد

هذا هو الفرق بين حضارته العربية الاسلامية وحضارة الغرب . وعمرو بن العاص الذي جاء ذكره هو الذي فتح مصر وفي أيام ولايته فتح السودان . وهو لم يبح كرامة الاخرين ولم يخن عهودا للمستضعفين . وخالد بن الوليد الذي فتح العراق وجانبا من الشام كان ايضاً مثله واعتقد ان الشاعر انما اراد ان يؤكد المنطلق الاخلاقي الذي يفرق بين الحضارتين : فالحضارة العربية روحها الاسلام وحضارة الغرب روحها الاستعمار .

ولكن كيف يستعيد الشاعر حضارته القديمة ؟؟ اين هو منها الان والاستعمار جاثم على صدره ؟؟ اين هو الان وقد صار قومه اذلاء بعد ان كانوا اعزاء مرفوعي الهامة ؟؟ اين السبيل وقد راى سيف الاستعمار مسلطا على الرقاب ؟؟ في هذه الظلمة الحالكة ابصر شاعرنا بصيصا من نور العلم والحضارة وراى في مصر نهضة بدت له كالشمس من بين الغيوم فخاطبها قائلا :—

مصر وما مصر سوى الشمس التي بهرت بثاقب نورها كل الورى
ولقد سعيت لها فكنت كانما اسعى لطيبة او الى ام القرى
وبقيت ماخوذا وقيد ناظري هذا الجمال تلفتا وتحيرا
فارقتها والشعر في لون الدجى واليوم عدت به صباحا مسفرا

ماذا اعطته مصر حتى يكن لها كل هذا الحب وكل ذلك التقدير ؟؟ الحق انه مدين لها بثقافته وتعليمه فقد هاجر اليها في شبابه ونهل من معين الادب والثقافة وعاد الى اهله في السودان ثم رجع اليها زائراً :

وقفت فيها يوم ذاك بمعهد كم من يد عندي لها لن تكفرا
دار درجت على ثراها يافعاً ولبست من برد الشباب الاخضرا

وهل هناك شيء اعلى من هذا العطاء في بلد يريد الاستعمار ان يشوه معالمه الحقيقية !! لقد اعطته مصر العلم بعد ان حرمه الاستعمار !! ذهب اليها صغيراً

يافعاً ورجع شابا متعلماً !! وهل هناك من يستطيع ان يحذف من التاريخ صفحة واحدة ناصعة البياض عليها احرف من نور ؟؟ ولكن ماذا كان يريد من مصر ؟؟

بـــني مصر الكرام برحـــتم مثـــالا للشعوب العاملينـــا
اعينونا فنحن بنـــو ابيـــكم لنـــا حـــق ونحن الاقربونا
لنـــا بالدين والفصحى ائتلاف وثيـــق ضم شعبينا قرونا
ونيـــل فاض كوثره فأجرى بواديه الحيـــاة لنا معينـــا

وهل هناك اكثر من رابطة الدم والعروبة والاسلام ورابطة الطبيعـــة ؟؟ الشاعر هنا قد تجاوز نطاق الافراد الى نطاق الجماعات والدليل على ذلك انه كان يخاطب ابناء مصر ـ اي الشعب المصري ـ ولم يخاطب حكومات ذلـك العصر لان رابطة الشعب في نظره اقوى من رابطة الحكومات .

نكتفي بهذا القدر من شعر العباسي وننتقل الى شاعر آخر هو عبدالله البناء الذي سار في نفس الطريق ولنسمع منه هذه الصيحـــة التي تدوي وهو يطالب بالحفاظ على تراث اللغة :

يا أيهـــا العرب الكرام الاصل من قاص ودان
الضاد موطنـــكم ومـــن حق المواطن ان تصان

ويفتخر الشاعر بنفسه العربي ودينه الاسلامي كما افتخر قبله شعراء في الصدر الاول من الاسلام ـ اولئك الشعراء الذين اضافوا الاسلام الى عروبتهم :

كفى بالعرب منتسباً كريماً وبالدين الحنيف لنـــا مهادا

ولكن ما بال القوم خانعين ساجدين امـــام المستعمر في بلاده .. لقد تغير الزمن وتغير وجـــه التاريخ امامه .. ماذا حدث حتى تبدلت العزة الى مذلة

والانفة الى خضوع ؟؟ ولكن بالرغم من هذه المذلة وهـــذا الخضوع بالرغم من الاستعمار الذي جثم على صدر بلاده وبالرغم من كل هـذه الظروف القاسية يرى ان هناك طريقا واحدا ومن اراد الخلاص عليه ان يتلمس هذا الطريق الذي رآه واضحاً وسط الظلمات . ما هو هذا الطريق ؟؟

انا نرجـــي نهضة عربيـــة تحمي العرين وتكفل الاشبالا
تهب الجبان شجاعـــة والمتر يب جرأة والباترات صقالا

ويصل الشاعر الى حقيقة موضوعية سبق الجميع عندما صرح بها ولو اهتدى اليها ابناء العروبة قبل زمانه لما تسلط الاستعمار عليهم وفرض االتجزئة :

خليلي هل من وحدة عربية من اللائي لم تولد لغير تمـام
حنيفية تسري بضوء كتابهـا وتغزو من الاقوام كل اثام
ذكرت بيوم المهرجان جمالها على عهد هارون وعهد هشام
وملك بني مروان يحمى زمارها وموردها فيهم كثير زمـام

وما احوجنا اليوم الى مثل هذا الشعر الذي ينفخ في النار في جذوة تجمعت حولها اكوام الرماد ورانت من فوقها سحب من الدخـــان الاسود تحجب عن الناظرين الرؤيا الصادقة .. دخان اسود صنعته ظروف الجهالة والاستعمار في بلد يحن الى ماضيه .. يحن الى الذين اضاؤا العصور المظلمة ورفعوا راية العلم والعرفان في المشرق والمغرب .. من الصين الى قرطبة :

بني وطني قد قمت للضاد داعياً واني لادعو للـتي هي اقـــوم
لقد وثق الله الروابط بيننا فلا تنفضوا بالله ما الله مبرم
ونبئت في السودان قوماً تآمروا على اللغة الفصحى اساءوا واجرموا
الا نحن عرب قبل ان لعبت بنا صروف الليالي والجهود الغشمشم
اذا لم تحسوا داءها وهو فاتك تهونوا وفي غير العروبة تدغموا

ولكن من هم الذين تآمروا عـلى الضاد والعروبة سوى الاستعماريين ومن خلفهم من الابواق ؟؟ اراد الاستعمار ان يشوه حقيقة اصيلة في هـــذا الشعب واراد طمسها بحضارة مشوهة ليس فيها سوى الاستعباد واستغلال الانسان لاخيه الانسان ولكن لن تضيع الحقيقة ابدا .

في نهاية هذا البحث اود ان اكرر ما ذكرته في اول الموضوع وهو ان شعراء السودان في الربع الاول من القرن العشرين قد اضافوا الى التراث الثقافي قدراً من الشعر العربي الفصيح الرصين وان كانوا مقلدين وليسوا بمبدعين وانهم في تلك الفترة العصيبة من فترات الحياة قد حملوا الراية وادوا الرسالة وقابلوا تحدي الاستعمار بما سارت به اشعارهم . وجدير بنا نحن ابناء هـــذا العصر حينما نقيم الشعر والادب ان نضع هؤلاء الشعراء لا في المكانة الطبيعية التي تليق بهم والتي احرزوها لانفسهم على منابر الادب وصفحات التاريخ .

مراجع البحث

١ — الاتجاهات الشعرية في السودان — الدكتور محمد النويهي .
٢ — الشعر والشعراء في السودان — احمد ابو سعد .
٣ — دراسات في الادب السوداني — الدكتور جمال الدين الرمادي .

الفنون السودانية

كمال محمد البرير
الجامعة الامريكية – صيدلة

وأقصد بكلمة « فنون » كل مـا تشمله من رسم ونحت وموسيقى ورقص وغناء وغيرها من النواحي الجمالية التي يتجه اليها الانسان مدفوعاً بالهامه ومتخذاً من تراثه القديم خير معين للخلق والابداع . ولعله من المستحيل ان اتمكن من سرد كل التفاصيل وشرح تاريخ وتطور الفنون السودانية باسهاب وذلك لضيق المجال .

والسودان قطر يتميز بنكهة خاصة في كل مجالات الحياة ... وبالطبع فان ذلك يشمل المجال الفني ولعلني لا اكون مبالغاً لو قلت ان السودان هو احـد الاقطار النادرة التي لم تتأثر تأثراً ملحوظاً بفنون القرن العشرين أما التطور الذي طرأ على الفنون السودانية فقد نبع من صميم البيئة السودانية ... ولعل السبب في ذلك يرجـع الى طبيعـة الشعب السوداني المحافظة والاحداث التي مرت به في تاريخه المجيد . ويكفيني في هذا المجال نظرة سريعة الى تاريخ السودان لتبيين صدق هذا القول . فمنذ قديم الزمان ارتبط تاريخ السودان بمصر خاصة في عهد الفراعنة . وكان من الطبيعي ان تظهر الفنون المصرية القديمة في السودان فاقيمت المعابد والقصور ونقشت عليها اللوحات الفرعونية التي لا تزال باقيـة حتى اليوم . ولكن الذي حدث انه بمجرد انتهاء الحكم الفرعوني في السودان بدأت الفنون السودانية تتبلور بذاتية حميدة .

وفي سودان اليوم نلحظ التطور الملحوظ في فنونه القومية الاصيلة . وهذه نتيجة حتمية لتطور المفاهيم السودانية وتفتحها على عالم جديد (بعد ان كانت محصورة في نطاق ضيق فرضته عليهـا الظروف الاستعمارية التي مرت بالبلاد) كذلك اتجهت الدولة لتشجيع الفنون مما فتح مجالاً للتنافس والتطور .

واذا اخذنا **فن الرسم** ، والذي لا يزال في المهد ، نجد انه لا يمكن الحكم له أو عليه في هذه المرحلة ، بيد ان ذلك لا يمنعنا من الاشارة الى الاهتمام بفن الرسم في السودان ، في المدارس والمعاهد والمعهد الفني في الخرطوم (والذي يتخرج منه في كل عام عدد من الشباب السوداني الذي يتمتع بثقافة فنية تبشر بكل خير) .

والاتجاه السائد في الرسم هو المذهب الواقعي اي الكلاسيكي والذي يعتبر تخلفاً في البلدان المتحضرة فنياً اليوم والتي اتجهت الى المدارس الحديثة في الرسم كالمذهب السريالي والتكعيبي والتجريدي والتي لا تزال شبه معدومة في السودان. وقد قيل مرة ان هذه المدارس الحديثة في الرسم هي في الواقع انعكاس صادق للقلق الذي نعيشه في هذا العصر . فهل يعني ذلك ان السودان لا يشارك عصره في القلق ؟ لا أظن ذلك وانما السبب في رأيي يعود الى طبيعة السوداني والتي لا تميل الى التغيير بسهولة . ونلاحظ اهتمام الفنان السوداني بالتعبير الصادق عـن البيئة السودانية كما نلاحظ استعمال الالوان الصارخة والمتعددة في اللوحة ولعل هذا القول يشمل الفنون الافريقية عامة ... وبالرغم من كثرة الفنانين السودانيين الا انني سأذكر على سبيل المثال لا الحصر الفنان عصام عبد الغفار الذي أقـام معرضاً للوحاته في صيف عام ١٩٦٣ في بيروت وكان صورة معبرة للاتجاه العام في الرسم السوداني . أما الرسم الصحفي والكاريكاتير فلا يزالان في المهـد . ولكنهما يبشران بكل خير خاصة في اللوحات التي تظهر في الصحف والمجلات والاكليشيهات الصحفية وفنون للكاريكاتير والخط . ونلاحظ سودانية هـذا النوع من الفنون من حيث المادة والتعليق .

والفن الثاني الذي سأتحدث عنه هو **النحت** الذي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بفن الرسم ولكنه لا يزال يعتبر اكثر الفنون تخلفاً في السودان ولا يلقي اهتماماً كغيره من الفنون ... هذا اذا استثنينا النحت الذي يدرس في المعهد الفني في الخرطوم والمعاهد التربوية . ومن المظاهر اللافتة للنظر في السودان قلة التماثيل وانتاج اعمال النحت (بالرغم من ثروة السودان الاثرية من النحت) الا نادراً وذلك لتخليد ذكرى شخصية مرموقة مثلاً او بعض التماثيل في الحدائق الشعبية .

أما في مجال الفن التعبيري والرقص فالسودان يزخر بتراث خالد في هذا المضمار . والرقص السوداني فن جميل زادته الروح الكلاسيكية التي يتصف بها جمالاً وروعة . وهو متنوع ومتعدد فكل قبيلة أو مجموعة جغرافية لها رقصاتها الخاصة بها فمثلاً نجد رقصة العرضة عند قبيلة الجعليين وشمال السودان عامة .. ورقصة الرقبة (رقصة الحمامة) التي تنتشر في اواسط وشمال السودان . بل واننا نلاحظ التمييز الجنسي في الرقص ... فللمرأة رقصاتها الخاصة التي لا يشاركها فيها الرجل وكذلك الحال للرجل ونادراً ما يشتركان في رقصة كمجموعات مثنى (Couples) الا نادراً وفي حفلات الرقص الجماعي ولعل ذلك يرجع الى التربية السودانية المحافظة (Conservatism) ولقبائل الجنوب رقصها المتعدد وهو بخلاف الرقص في الشمال يتميز بالحركة السريعة والانفعال والجماعية ولا تنسى مسارح الجامعة الاميركية في بيروت رقصة (الكمبلا) التي يؤديها الطلبة السودانيون وهي رقصة من غرب السودان وتؤدى في موسم الحصاد وفيها الكثير من معالم الفرح وتؤدي باسلوب تعبيري جميل لو لقي العناية والتشذيب لوجدت شهرة عالمية .

أما الموسيقى السودانية فهي في مرحلة النمو وللموسيقى السودانية نكهة ظاهرة هي خليط من الموسيقى العربية والافريقية مما جعلها قريبة الشبه بالموسيقى الهندية . وقد كانت الآلات القديمة بدائية نوعاً ما واشتملت على صورة بدائية للعود الشرقي في آلة تسمى الطنبور (والذي لا يزال يستعمل حتى اليوم)

والرق وهو (طبل) صغير وقد انتعشت الموسيقى السودانية بادخال الآلات العصرية عليها مثل القيثارة الحديثة والاكورديون والكلارانيت والساكسفون بالاضافة الى العود والجيتار و (الكمنجة) والبيانو أحياناً . بل ان بعض الفنانين اتجه الى موسيقى الجاز .

والموسيقى السودانية بوجه عام لا تزال سودانية صرفة لم تتأثر بالموسيقى الغربية ولعل ذلك عائد الى استعمال (السلم الخماسي) من الموسيقى السودانية بينما اتجهت الموسيقى الغربية الى (السلم السباعي) مما يجعل التأثر بها صعباً .

ولعل السودان هو اكثر الاقطار العربية والافريقية تعدداً بانواع الغناء والانشاد ... فهنالك (الدوبيت) وهي أبيات من الشعر الوصفي باللهجة القديمة ترنم بطريقة خاصة بدون موسيقى مصاحبة ... كذلك نجد نوعاً من الاغاني فيه روعة الالفاظ وجمال المعاني ويشترط فيه جمال صوت المغني لنجاح الاغنية . ولعل قوة هذه الاغاني ورصانتها وشاعريتها الجميلة هي التي اغنت عن استخدام اوركسترا لاداء الاغنية ما عدا (الرق) وهذا النوع من الغناء يطلق عليه اليوم (حقيبة الفن) وهو يمثل الفترة الغنائية التي سبقت المرحلة الحديثة من الغناء . وبالرغم من عدم انتشاره اليوم الا ان المنافسة لا تزال قائمة بينه وبين الغناء الحديث وهي المنافسة التقليدية بين القديم والحديث . وكمثال لهذا النوع من الغناء اسوق هذه الابيات :

يا بنت ملوك النيل يا اخت البدر من لي علاك ينيل
في البدو والحضر
فقت الكانوا قبيل ماخدات في الجمال جائزة نوبل
حسنك وضع تسجيل في صحف الدهور يتلوه جيل عن جيل

أما الغناء الحديث فهو السائد اليوم وهو يسير في تطور حميد وينفعل

بأحداث الوطن ويشارك الشعب أفراحه وأحزانه . وقد شارك الفن الغنائي الحديث جيران السودان في وثبات التحرر وافراح الحرية والاستقلال فأنشد الفنان السوداني لاخوانه في قارتي آسيا وافريقيا مجـــدداً صلات الود ومحيياً روابط الكفاح المشترك ووحدة الهدف فقال :

عندما أعزف يا قلبي الاناشيد القديمـــة
ويطل الفجر في قلبي على أجنـــح غيمة
سأغني لرفاقي في البـــلاد الأسيوية
للمـــلايو لباندونـــج الفتيـــة
ولأثيوبيـــا العريقة
لليالي الفرح الخضراء في الصين الجديـدة
والتى أعزف لهـــا في قلبي ألف قصيدة

وهو يحيي اخوانه العرب في المحنة وكفاحهم ضد الاستعمار والرجعية فيقول :

مصر يا أم جمـــال أم صابر
ملء روحي انت يا اخت بلادي
سوف نجتث من الوادي الاعـادي
فلقد مدت لنـــا الايدي الصديقة
وجه غاندي وصدى الهند العميقة

الى ان يقول :

يا دمشق .. يا دمشق كلنا في الفجر والامال شرق

واتجه الفنان السوداني في الاونة الاخيرة الى تراثه الغنائي وتناوله بالتهذيب فاتجـــه بعض الفنانين وعلى رأسهم الفنان عبد الكريم الكابلي الى الفن الغنائي القديم والتراث الشعبي وقاموا بادائه بطريقة حديثـــة تصحبه الاوركسترا الموسيقية مع الاحتفاظ بنكهة اللحن القديمة، فجاءت تجمع بين جمال مناخ القديم وسحره واناقة الموسيقى الحديثة .

وكمثل لهذه الفنون الشعبية اسوق كلمات الشاعرة بنونة بنت الملك[1] عندما توفي اخوها فأنشدت قائلة :

مـــا هو الفافنوس ما هو الغليظ البوص [2]

ود المـــك عريس خيالا يجن عركوس [3]

آه على سيفـــه البحـــد الروس [4]

ولا يتسع المجال هنا لذكر الكثير من اصناف الفنون الشعبية في السودان ولكن يكفي القول بانها من المعالم الغنائية المهمة . أمـــا الاغاني العاطفية فهي تمثل الكثرة الغالبة في الاغاني الحديثة وتمتاز كلماتهـــا بالسهولة والسلاسة وعفة المعنى واباء الحبيب ووصف جمال المحبوبة في غير ابتذال ... فالفنان يقول مثلاً : —

يا ضنين الوعد اهديتك حبي من فؤاد يبعث الحب نديا

ان يكن حسنك مجهول المدى فخيـــال الشعر يرتاد الثريا

كلمـــا اخفيته في القلب تنبيء عنه عيناك ولا يخفى عليا

---

١ — بنونة بنت الملك هي ابنة الملك نمر احد زعماء قبيلة الجعليين في شمال السودان وقـــد اشتهر بمواقفه الوطنية .

٢ — تشير الى انه ليس بالجبان الذي يدعي ويتفاخر بالشجاعة .

٣ — تعني عظمة ومكانة اخيها مشيرة الى الخطب الجليل لفقده .

٤ — دلالة على شجاعة اخيها واقدامه في القتال .

انا ان شئت فمن اعماق قلبي ارسل الالحان شلالا رويا
وابث الليل اسرار الهوى وأصوغ الصبح ذوبا بابليـا

ومجمل القول ان الفنون السودانية وبالرغم من سلحفائية تقدمهـا تسير في الدرب الطويل الذي لا بد ان يقودها الى احتلال مكانهـا المرموق بين فنون العالم الجميلة .

وبعد فاني اتمنى ان اكون قد وفقت في ابراز عرض سريع لمختلف المجالات الفنية في السودان ومع يقيني انه لا يمكن لكتاب كامل ابراز كل تفاصيلها ولكن غرضي التعريف فقط لا اكثر .

الحركة الوطنية في السودان
من فبراير ١٩٣٨ الى اكتوبر ١٩٦٤

عثمان السيد
كلية الآداب والعلوم – جغرافيا

اذا نظرنا الى تاريخ السودان القديم والحديث نلاحظ انه يمثل حلقة متصلة من الكفاح والنضال ضد الاحتلال الاجنبي . فقد حرص ابناء السودان منذ زمن قديم على تكوين حكومات وطنية لتشرف على شئون بلادهم وتديردفة الحكم فيها .. وليس ادل على صدق ما نقول من قيام دولة النوبة المستقلة التي تكونت في شمال السودان في القرن الثامن الميلادي والتي وسعت حدودها شمالاً حتى البحر الابيض المتوسط .. وليس ادل على ذلك ايضاً من قيام دولة الفونج المستقلة (١٥٠٤ – ١٨٢١) والتي اتسعت فشملت معظم اجزاء السودان الحالي .. ثم قيام دولة الفور الوطنية في غرب السودان وقد كانت لها صلات تجارية واسعة مع مصر . ولا يفوتنا ان نذكر قيام دولة المهدية الوطنية الاسلامية (١٨٨١ – ١٨٩٨) والتي قامت على يد الثائر الاكبر محمد احمد المهدي الذي استطاع ان يطرد جيش الاستعمار التركي الى خارج ارض السودان . وحين دخلت جيوش الحكم الثنائي الانجليزية والمصرية الى السودان سنه ١٨٩٨ قاومها ابناء السودان ودافعوا ببسالة عن دولتهم الوطنية دولة المهدية ... ولكن الجيش الغازي كان يفوقهم عدة وعتادا فانتصر عليهم وبدأ الحكم الثنائي الانجليزي المصري للسودان . غير ان ابناء السودان لم يستكينوا لهذا الحكم الجديد ولم يرضخوا له وانى لهم ان يفعلوا ذلك وهم يعلمون ان بريطانيا .. وقد كانت تسيطر على مصر

في ذلك الاوان انما استعمرت السودان لتستغل موارده وخيراته كما استغلت من قبل خيرات مصر .. وكيف يرضخ ابناء السودان الحكم الثنائي وهو الذي قضى على دولتهم الوطنية .. دولة المهدية التي كانت تمثل آمالهم وطموحهم وعزتهم .. وكيف يمد ابناء السودان يدا بيضاء للحكم الجديد وهو الذي قتل المئات بل الالاف منهم في عطبرا .. وابي طليح وكرري .. وعليه فقد كانت فترة الحكم الثنائي (١٨٩٨ — ١٩٥٦) حافلة بالعديد من المعارك ضد الاستعمار الاجنبي . ففي سنة ١٩٠٧ قاد عبد القادر ود حبوبة ثورة في بلاد الحلاويين بمنطقة الجزيرة ضد المستعمرين الا ان جيوش الاحتلال اسرعت الى قمع الثورة وقتلت قائدها .

وفي اعقاب الحرب العالمية الاولى ثار ابناء الشعب المصري مطالبين بانهاء السيطرة الانجليزية على بلادهم وبخروج الانجليز من مصر والسودان . وامتدت جذور تلك الثورة الى السودان فقامت ثورة جمعية اللواء الابيض سنة ١٩٢٤ والتي قادها الضابط السوداني علي عبد اللطيف وقد كانت تنادي بخروج الانجليز من مصر والسودان وبوحدة وادي النيل ولكن الانجليز اسرعوا فنفوا بعض قادتها واعدموا الباقين .. ولم تهدأ الثورة في مصر وكانت نتيجتها ان قتل الثوار السير لي استاك حاكم السودان الانجليزي والذي كان يزور مصر في ذلك الاوان.. فاستغلت بريطانيا ذلك الحادث وانفردت وحدها بحكم السودان واخرج الجيش المصري والموظفين المصريين من الاراضي السودانية .

مؤتمر الخريجين سنة ١٩٣٨ وقيام الاحزاب السودانية :

وفي سنة ١٩٣٦ دخلت بريطانيا ومصر في مفاوضات بشأن مستقبل السودان وامضيت معاهدة بين الدولتين عاد بمقتضاها الجيش المصري والموظفون المصريون للسودان... غير ان الشعب السوداني وعلى رأسه الطليعة المثقفة أحست بالغبن والظلم .. كان السودانيون يشعرون انهم اصحاب الحق الاول في تقرير مصير السودان وان اية مفاوضات بشأن السودان يجب ان تشملهم هم قبل غيرهم. هذا الحادث دفع الطليعة المثقفة للتفكير في تكوين رابطة للخريجين تتبنى

اهداف السودانيين وآمالهم الوطنية وتعمل على رعاية مصالح الامة السودانية.. ثم ان المثقفين احسوا بالغبن والظـــلم حين لجأت الحكومة لتخفيض رواتبهم متعللة في ذلك بالازمة المالية في الوقت الذي لم تلجأ الحكومة لتخفيض مرتبات الموظفين الانجلـــيز الذين كانوا يتقاضون اضعاف اضعاف مرتبات السودانيين. أحس الخريجون اذن بضرورة تكوين رابطة لهم.. فكتبوا للسكرتير الاداري البريطاني السير دوقلاس نيوبولد طالبين التصديق بتكوين مؤتمر لهم عرف بمؤتمر الخريجين. وصادق السكرتير الاداري في فبراير سنة ١٩٣٨ على تكوين المؤتمر على أساس ان المؤتمر هيئة اجتماعية وليست سياسية وانه لا يمثل الشعب السوداني باية حال من الاحوال وانما يمثل وجهة نظر اعضائـــه فقط. وباشر المؤتمر اعماله وركز نشاطه في فتح المدارس الاهلية واعانتها وفي العمل في الحقل الثقافي بوجه عام. وجاءت سنة ١٩٤٠ وحدث ان زار علي ماهر باشا رئيس وزراء مصر في ذلك الاوان السودان فطلب المؤتمر من الرئيس المصري اعانـــة تساعده في اداء رسالته، فكانت تلك الحادثة أول بادرة خلاف بين المؤتمر وحكومة السودان التي كانت ترى أن علي ماهر ضيفها وان أي اتصال به يجب ان يتم عن طريقها.

وفي سنة ١٩٤٢ كشف المؤتمر عن قناعه وأطل بوجهه السياسي.. فقد كتب مذكرة الى الحكومة الثنائية مطالباً بجلاء القوات المحتلة من اراضي السودان وباعطاء السودانيين الفرصة لتقرير مصيرهم وبالعمل على انتخاب برلمان سوداني يدير شئون البلاد. عندها اقتنعت الحكومة بأن المؤتمر ليس هيئـــة اجتماعية كما ظنت وانما هو في واقعه هيئة سياسية. ودارت المفاوضات والاتصالات بـــين الحكومة وقادة المؤتمر. وذكر السكرتير الاداري لقادة المؤتمر ان نوايا بريطانيا طيبة نحو السودان. عندها انقسم المؤتمر الى قسمين، قسم قبـــل برد السكرتير الاداري غير الكتابي، والقسم الآخر رفض القبول الا برد كتابي من السكرتير الاداري. أما القسم الاول فكون الاحزاب الاستقلالية وأهمها حزب الامة والذي تكون في فبراير سنة ١٩٤٥ وكون القسم الثاني الاحزاب الاتحادية التي كانت تنادي بالوحدة مع مصر وأهمها حزب الاشقاء الذي اكتسح انتخابات المؤتمر وصاغ اهداف المؤتمر على انها قيام اتحاد مع مصر. واتجه حزب الامة الى

السيد عبد الرحمن المهدي ليكسب عطف طائفـــة الانصار واتجهت الاحزاب الاتحادية نحو السيد علي الميرغني لتكسب ولاء طائفة الختمية .

المجلس الاستشاري لشمال السودان سنة ١٩٤٣ :

في سنة ١٩٤٣ شعر الانجليز بخطورة مؤتمر الخريجين وخاصة بعد ان نادى بالاتحاد مع مصر . وفكرت الادارة الانجليزية في خلق جبهـة جديدة تحد من خطورة المؤتمر فاتجهت الى احياء سلطان مشايخ القبائل فعملت على اشراكهم في مجلس عرف باسم « المجلس الاستشاري لشمال السودان » دون جنوبه بحجة ان الشمال يختلف عن الجنوب في الدين والتراث والامكانات . غير ان الطليعة المثقفة قاطعت المجلس الاستشاري ورأت فيه خطة استعمارية تهدف الى فصل شمـــال السودان عن جنوبه كما ان المجلس الاستشاري جاء صورة مشوهـــة للديمقراطية السليمة التي طالما تمناها الشعب السوداني فقد شكل بصورة جعلته اداة للاستعمار اذ كان يتألف من ثمانية وعشرين عضواً ويرئسه الحاكم العام او من ينوب عنه . وعين الحاكم العام ثمانية اعضاء آخرين وفق رأيـــه الخاص . ولم تكن قرارات المجلس ملزمة للحكومة بأية صورة من الصور . لكل ذلك رفض المثقفون الاشتراك في المؤتمر ورأوا انه مناورة استعمارية قصد منهـا الانجليز كبح جماح التيار الوطني الذي كان يرمي في المكان الأول الى خروج الحكم الثنائي بجيوشه وموظفيه . ويهدف الى انتخاب برلمان سوداني صميم يقرر فيه ابناء السودان مصير بلادهم بانفسهم وعليه فلم يشترك في المجلس الاستشاري الا مشايخ القبائل وغيرهم ممن كانوا دائماً وابداً اعواناً للاستعمار البريطاني .

الجمعية التشريعية سنة ١٩٤٨ :

شعر الانجليز بفشل المجلس الاستشاري الذي لم يحز برضى الشعب السوداني وبصورة خاصة الطبقات المستنيرة منه . وعليه فقد حلت حكومة الحكم الثنائي المجلس الاستشاري واستبدلته بالجمعية التشريعيـــة ولكي تكسب رضى المثقفين

عملت الحكومة على اشراك الجنوبيين فيه . ليس ذلك فحسب بل انهـــا عينت ولأول مرة ثلاثة وزراء في المجلس التنفيذي . وقد اشترك في الجمعية التشريعية حزب الامة وبعض المستقلين وقاطعتها الاحزاب الاتحادية وغيرها من الاحزاب الوطنية . وكانت الاحزاب الاتحادية ترى في الجمعية التشريعية ما سبق ان رأته في المجلس الاستشاري فهي في نظرهم حركة رمى منها الانجليز الى عرقلة الوعي القومي وبث التفرقة بين الصفوف . وما هي الا مناورة اخرى قصد منهـــا الانجليز ايهام السودانيين بان بريطانيا جادة في عزمها على منحهم الاستقلال التام وتدريبهم على الحياة الديمقراطية . وكان حجة المعارضين ان عدداً لا يستهان به من اعضاء الجمعية التشريعية معين بواسطة الحاكم العام وحتى الاعضاء المنتخبين انتخابهم اقرب الى التعيين اذ ترك لحكام الاقاليم تحديد الاشخاص اصحاب الحق في التصويت . كما سمح للموظفين بترشيح انفسهم كما ان اعضاء جنوب السودان عينوا بواسطة حكام الاقاليم . وقد كان للحاكم العام الحق في رفض كافـــة التشريعات التي تصدرها الجمعية كما ان رفض الجمعية لاي مشروع يقدمه الحاكم العام لا يسقطه . وعليه فعند افتتاح الجمعية التشريعية في ١٥ ديسمبر سنة ١٩٤٨ نظم المعارضون المظاهرات المعادية في عدد من المدن السودانية فقتل عدد منهم واعتقل البعض الآخر وكان من بينهم السيد اسماعيل الازهري زعـــيم حزب الاشقاء .

وبالرغم من المعارضة الشديدة للجمعية التشريعية الا انها سارت في الطريق المرسوم لها . وفي ٢ ابريل سنة ١٩٥٢ قدم الحاكم العام البريطاني السير جيمس روبرتسون الى الجمعية التشريعية مشروع الحكم الذاتي للسودان ومنح السودان بمقتضى المشروع حكومة وطنية مسئولة أمام البرلمان ولكنه وضع في يد الحاكم العام البريطاني حق الاعتراض على قرارات الوزارة والبرلمان . ومنح الحاكم العام سلطة الاشراف وحده على المديريات الجنوبية واجاز الدستور للحاكم العام سلطة اعلان الانهيار الدستوري فكان بمثابة سيف في يده يستعمله متى أراد . هذا وقد اجازت الجمعية التشريعية مشروع الحكم الذاتي بأغلبية صوت واحد . ولكن

المشروع وجد معارضة قوية من الشعب السوداني .

قيام الثورة المصرية يوليو ١٩٥٢ :

في الوقت الذي قدم فيه الحاكم العام مشروع الحكم الذاتي الى دولتي الحكم الثنائي بريطانيا ومصر لاقراره قامت ثورة ٢٣ يوليو في مصر وكان من حسن طالع السودان ان كان على رأس تلك الثورة اللواء محمد نجيب وهو من أم سودانية وتلقى تعليمه في المدارس السودانية . ونجح اللـــواء نجيب حيث فشل الساسة المصريون من قبله في ان يكسب ثقة حزب الامة الذي كان ينادي باستقلال السودان ويعارض الوحدة مع مصر والتي كانت تدعو لها الاحزاب الاتحادية . واستطاع اللواء نجيب ان يوحد الاحزاب الاتحادية المتعددة في حزب واحد هو الحزب الوطني الاتحادي . ووجـــه قادة ثورة ٢٣ يوليو جهدهم لتخليص وادي النيل شماله وجنوبه من الاستعمار البريطاني واعلنوا ايمانهم بحق السودانيين في تقرير مصيرهم ورحبوا بصداقتهم واخوتهم للشعب السوداني كما ابدوا استعدادهم للتعاون معـــه في شتى الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية . وفي نوفمبر ١٩٥٢ ارسلت الحكومة المصرية مذكرة الى الحكومة الانجليزية بشأن السودان ودارت المفاوضات بين الدولتين وتمخضت عن اتفاقية فبراير سنة ١٩٥٣ .

اتفاقية سنة ١٩٥٣ :

في فبراير سنة ١٩٥٣ وقع اللواء نجيب رئيس مجلس الثورة المصري والسير رالف ستيفنسون سفير بريطانيا في مصر على نص الاتفاق بين الحكومتين المصرية والانجليزية بشأن تقرير مصير السودان . وقد جاء في تلك الاتفاقية ان الدولتين تؤمنان بحق الشعب السوداني في تقرير مصيره . وقضت الاتفاقية بان يمنح الشعب السوداني الحكم الذاتي لمدة ٣ سنوات يقرر بعدها ابناء السودان مصيرهم فامـــا الاستقلال كما كان يرى حزب الامة واما الاتحاد مع مصر كما كان يرى الحزب الوطني الاتحادي وقضت الاتفاقية بتكوين لجنة لتعاون الحاكم العام ابان فترة

الانتقال على ان تتكون تلك اللجنة من اثنين من السودانيين وعضو مصري وعضو بريطاني وعضو باكستاني . وقضت ايضاً بان تكون لجنة للانتخابات من سبعة اعضاء ثلاثة منهم سودانيون وعضو مصري وعضو بريطاني وعضو امريكي وعضو هندي هو رئيس اللجنة . وتقرر كذلك تكوين لجنة عرفت بلجنة السودنة من خمسة اعضاء ثلاثة منهم سودانيون وواحد من كل من مصر وبريطانيا .

البرلمان الاول سنة ١٩٥٤ :

ما ان تم توقيع الاتفاقية حتى اخذت الاحزاب السودانية تعد نفسها لاول انتخابات برلمانية وكانت تلك الانتخابات في غاية الاهمية اذا ان البرلمان سيحدد مستقبل السودان السياسي فاما الاتحاد مع مصر واما الاستقلال . وعليه نشطت الدعاية الانتخابية ، وبلغ النشاط السياسي ذروته .

وفي نوفمبر عام ١٩٥٣ اجريت الانتخابات وكانت باشراف المستر سوكومارسن الهندي . وفاز الحزب الوطني الاتحادي باغلبية المقاعد في مجلس النواب والشيوخ وتالفت اول وزارة سودانية برئاسة السيد اسماعيل الازهري رئيس حزب الاغلبية وعملت الحكومة الوطنية جهدها في تصفية الحكم الثنائي فسودنت غالبية الوظائف في الادارة والبوليس والجيش واخذ السودانيون يحلون محل الانجليز والمصريين في ادارة ردفة الحكم . ليس ذلك فحسب بل ان الحكومة عملت جادة على اجلاء القوات المصرية والانجليزية من ارض السودان .

اعلان الاستقلال يناير ١٩٥٦ :

في الوقت الذي كانت فيه الحكومة الوطنية تباشر عملها في تصفية الادارة الاستعمارية وتسليمها للسودانيين ، وفي الوقت الذي اخذت فيه فلول جيش الاحتلال تغادر البلاد توحدت كلمة الامة السودانية على الاستقلال بدلا عن الاتحاد مع مصر . ولقد كان العامل الاكبر في ذلك هو اقصاء اللواء نجيب وهو الذي عرف بحبه وصداقته للسودان من رئاسة مجلس الثورة المصري هذا بالاضافة

الى ان سياسة القمع والارهاب التي اتبعتها الحكومة المصرية ضد الاخوان المسلمين والشيوعيين وغيرهم من المناوئين لها افقدها عطف الكثيرين من السودانيين. عند ذلك لم يجدد الحزب الوطني الاتحادي بدا من الاستجابة لرغبة الشعب السوداني وعليه ففي ١٩ ديسمبر سنة ١٩٥٥ وافق البرلمان بالاجماع على اعلان استقلال السودان وكلف الحكومة بتبليغ القرار لدولتي الحكم الثنائي . اجاز البرلمان بعد ذلك الدستور المؤقت والذي نص على ان يكون السودان جمهورية ديمقراطية ذات سيادة كما أقر اقتراحاً بتشكيل مجلس للسيادة من خمسة اعضاء يحل مكان رئيس الجمهورية الى ان يتم انتخاب رئيس الجمهورية.

ابلغ الحاكم العام السير نوكس هيلم قرار البرلمان لدولتي الحكم الثنائي وعلمت كل من الدولتين برغبة السودانيين في اعلان استقلال بلادهم . فسارعت كل منهما باعلان مباركتها واعترافها باستقلال السودان. وفي اول يناير سنة ١٩٥٦ اعلن ميلاد اعلن جمهورية السودان في حفل كبير حضره الالاف من السودانيين وفي طليعتهم رؤساء الطوائف الدينية والاحزاب السياسية وسارعت دول العالم للاعتراف بجمهورية السودان وتلى ذلك قبول السودان لعضوية الجامعة العربية ومنظمة الامم المتحدة .

البرلمان الثاني مارس ١٩٥٨ :

في فبراير ١٩٥٦ اتجهت النية نحو تكوين حكومة قومية تضم حزب المعارضة وذلك حتى تستطيع العمل في ثقة وثبات لتدعيم استقلال السودان وتركيز اقتصاده ولتقضي على الفتن والثورات التي اخذت تهدد الجمهورية الوليدة وخاصة بعد محاولة التمرد المشؤومة في جنوب السودان في سنة ١٩٥٥ والتي راح ضحيتها عدد كبير من ابناء السودان الابرياء . وعليه فقد تالفت وزارة قومية برئاسة السيد اسماعيل الازهري غير ان البرلمان ما لبث ان اسقطها وحلت محلها وزارة ائتلافية برئاسة السيد عبدالله خليل سكرتير حزب الامة وقد جاءت تلك الوزارة في اعقاب الائتلاف الذي حدث بين حزب الشعب الديمقراطي

المنشق من الوطني الاتحادي وحزب الامة المعارض .

وقد استمر التحالف بين الطائفتين الانصار والختمية وبالتالي بين حزبيهما حزب الامة وحزب الشعب الديمقراطي الى ان جاءت انتخابات البرلمان الثاني في فبراير / مارس ١٩٥٨ . واحرز الحزبان اغلبية في البرلمان الجديد فالفا وزارة ائتلافية جديدة برئاسة السيد عبدالله خليل . وواجهت الحكومة الجديدة مصاعب جمة كان في طليعتها اقتصاد البلاد الذي واجه تدهوراً ملحوظا كما ان سياستها الخارجية والداخلية لم تكن تحظى بتأييد الشعب السوداني . واخذت جماعة من حزب الشعب الديمقراطي تعمل على لقاء جديد بين حزب الشعب الديمقراطي والوطني الاتحادي . واوشك التحالف الذي حصل بين طائفتي الختمية والانصار ان ينفصم وكان لابد لذلك الحلف من الانفصام فحزب الشعب الديمقراطي يختلف شكلا وموضوعا عن حزب الامة فهو يحظى برعاية وتأييد السيد علي الميرغني الذي ظل دائما وابدا مقربا لمصر . بينما حزب الامة والذي يحظى برعاية السيد عبد الرحمن المهدي ظل دائماً بعيداً عن مصر وهو اقرب الى انجلترا والدول الغربية منها الى مصر. ايقن السيد عبدالله خليل ان المشاورات التي اخذت تجري هنا وهناك ستكون نتيجتها قيام ائتلاف جديد بين حزبي الشعب الوطني الاتحادي . وستتمخض عن ذلك التحالف حكومة من الحزبي تخلف حكومته وربما اتجهت الحكومة الجديدة في تيار غير التيار الذي كان يريده السيد عبدالله خليل . وربما دفعت بالسودان بعيدا عن المعسكر العربي الذي كان السيد عبدالله خليل ينوي ان يربط السودان بعجلته . عندها قرر السيد عبدالله خليل تسليم الحكم للجيش فكان ان استدعى الفريق عبود القائد العام للجيش السوداني واقنعه بان الجيش هو المنقذ الوحيد لحال السودان المتدهور وطلب اليه استلام الحكم والدليل على صدق ما قلناه ما ذكره السيد عبدالله خليل في يوم ٢٦ نوفمبر ٥٨ بانه كان يعرف سلفا بحدوث انقلاب ١٧ نوفمبر . تحرك الجيش بقيادة الفريق عبود في١٧ نوفمبر سنة ١٩٥٨ واستلم

مقاليد الحكم في البلاد. وظل في السودان تحت الحكم العسكري الى ان قامت ثورة ٢١ اكتوبر ١٩٦٤ .

انقلاب ١٧ نوفمبر ١٩٥٨ :

في ١٧ نوفمبر ١٩٥٨ تحركت قوات الجيش برئاسة الفريق عبـود فاستولت على الحكم وظل مسيطرة عليه لمدة ست سنوات. طوال ذاق فيها شعب السودان الامرين من حكم العسكريين اللاواعي . وقد طـاب لقادة انقلاب ١٧ نوفمبر ان يسموا استيلاءهم على السلطة ثورة ولكنه كان ابعد ما يكون عن الثورة ذلك لان قيادة الجيش السوداني تحركت بكامل هيئتها وعلى حسب اقدميتها فاستولت على جهاز الحكم في البلاد والثورة عادة لا تكون من القمة . كما ان قيادة الجيش لم يكن لها برنامج ثوري مدروس وخطة جديدة مرسومة تسير بمقتضاها. وبارك الشعب السوداني في بداية الامر الانقلاب العسكري فقد ضاق ذرعا بحكومـة السيد عبدالله خليل والـتي كادت ان تطيح بكل المكاسب التي نالتها البـلاد ابان فترة الاستقلال . غير ان الشعب السوداني ما لبث ان اقتنع بانه استبدل سيئـاً باسوأ . ذلك لان الحكومة الجديدة سرعان ما حولت السودان الى دولة بوليسية تحكم بواسطة الحديد والنار . فكمت الحريات العامة وفرضت قانون الطوارىء وعطلت النقابات العمالية واتحادات المزارعين وغيرها من المنظمات . وكان مصير المعارضين الموت والارهاب والتعذيب والسجن. وانهارت اقتصاديات البلاد نتيجة للتخطيط اللاواعي . وساد الكساد في الاسواق ، وخلـت خزينة البلاد مـن النقد الاجنبي واخذ الحكم العسكري يبحث شمالا ويميناً عن القروض ليفـي الالتزامات المتعددة ولينفذ المشاريع الكثيرة التي حاول القيام بها دون تفكـير او روية. وجاءت سياسة الحكومة الخارجية مهزوزة وضعيفة ومترددة كسياستها الداخلية . وكانت مواقفها في الجامعة العربية ومنظمة الامم المتحدة وغيرها من المنظمات الاخرى سلبية ومهزوزة وهي ابعد ما تكون عن مواقف الشعب السوداني الذي عرف دائمـاً بشجاعته وايجابيته . وكان سماحهـا للطائرات البريطانيـة

المتوجهة لضرب ثوار الجنوب العربي بالهبوط في مطار الخرطوم وصمة عار كبرى. كما ان سياسة القمع التي اتبعتها للقضاء على مشكلة جنوب السودان لم تجد مناصرا واحدا في جميع ارجاء القطر . وقد ذهبت العشرات بل المئات من ارواح ابناء السودان شماليين وجنوبيين ثمنا لتلك السياسة الرعناء . ولا يفوتنا ان نذكر ان الحكومة العسكرية عبثت باخلاقيات الامة السودانية التي عرفت دائماً بنبيل صفاتها وكرم اخلاقها فانغمس القادة العسكريون في الفساد والمجون الشيء الذي اثار عليهم الشعب السوداني بجميع فئاته . ولا ننسى ان نذكر المحاولة اليائسة التي حاول بها الحكم العسكري منح البلاد حكما ديمقراطيا عن طريق انشاء المجلس المركزي ومجالس المديريات وقد كانت في جملتها محاولة فاشلة عارضها شعب السودان واباها . كل ذلك بالاضافة الى انهيار القضاء نتيجة لتدخل العسكريين فيه ثم تعطيل الدراسة المتكرر في جامعة الخرطوم والمعاهد والمدارس المختلفة . كل تلك الاسباب دفعت الشعب السوداني لمقاومة الحكم العسكري . وظل الشعب السوداني يقاوم الحكم العسكري لمدة ست سنوات متواصلة (١٩٥٨ – ١٩٦٤) الى ان نجحت ثورة ٢١ اكتوبر في القضاء على الحكم العسكري واعادت للسودان حريته وعزته وكرامته .

ثورة ٢١ اكتوبر ١٩٦٤ :

في اكتوبر سنة ١٩٦٤ كان السخط على الحكم العسكري قد بلغ منتهاه . وضاق الشعب السوداني بجميع طبقاته وطوائفه وهيئاته بالحكم العسكري الذي اوشك ان يرمي بالبلاد في هوة سحيقة . فرجال الدين ضاقوا بما رأوه وسمعوه من الفساد والمجون الذي تردى فيه القادة العسكريون . وافراد الشعب ما عادوا يستطيعون الصبر على السياسة الحائرة المترددة التي ظلت الحكومة تتبعها في الداخل والخارج وقد عيل صبرهم وهم يرون الرشوة والاختلاس والمحسوبية تعم دواوين الحكومة. واحس الموظفون ان جهاز البلاد الاداري قد اوشك على الانهيار . وشعر الاقتصاديون بحلول الكارثة الاقتصادية كما ان سياسة

الحكومة العسكرية الرعناء في جنوب السودان اكسبتها حنـق جميع الفئات . وعليه فقد كان الجميع في حالة تاهب واستعداد للثورة وبصورة خاصة الطلاب والسياسيون والنقابيون الذين ذاقوا الويل والعذاب من سياسة الكبت والقمع والارهاب . وجاءت الفرصة عندما تصـــدى البوليس ليمنع طـــلاب جامعة الخرطوم من عقد ندوة لمناقشة الوضع المتأزم في جنوب السودان وطـــارت رصاصة لتستقر في رأس الشهيد احمد قرشي فكانت تلك الرصاصـة ايذانا بنهاية حكم العسكريين . فقد خرج الشعب السوداني بجميع فئاته ، شيباً وشبابا .. نساء واطفالا .. هب الشعب الاعزل ليقاوم الرصاص والدبابات والمدافع وجميع الات الدمار وسقط العشرات منه ولكنه صمم على الانتصار فانتصر .. فارادة الشعوب اقوى من ان تقهر .. انتصر الشعب السوداني الاعزل وضرب بذلـــك اروع الامثلة في التضحية ونكران الذات لشعوب العالم اجمع . تلى ذلك مفاوضات واجتماعات بين قادة الاحزاب وبعض العسكريين المخلصين . وتمخضت المفاوضات عن تأليف حكومة قومية برئاسة السيد سر الختم الخليفة اوكل اليهـا العمـل على تصفية الحكم العسكري واعادة البلاد الى حكم ديمقراطي سليم . وسارعت الحكومة لتنفيذ الميثاق الوطني الذي اتفقت عليه جميع الاحزاب والهيئـــات فعملت على اعادة الحريات وازالت القيود التي ظلت تكبل الشعب السودانـــي طوال عهد الحكم العسكري الارهابي الغاشم .

المراجع :

١ — The Mahdiya, A. B. Theobold

٢ — The Making of Modern Sudan, K. D. D. Henderson

٣ — The Sudan in Anglo-Egyptian Relations, A. Fabunmi

٤ — A Modern History of the Sudan - P. H. Holt

٥ — تاريخ السودان من اقدم العصور الى قيام الاحزاب ، مندور المهدي .

٦ — **السودان في قرن** ، مكي شبيكة .

٧ — **يقظة السودان** ، ابراهيم احمد العدوي .

٨ — **معركة البرلمان السوداني** ، عمر محمد عبدالله .

محتويات الكتاب

صفحة

كلمة الاتحاد ٥

توطئة ٧

جذور الحركة العربية في السودان في القرن السادس عشر الميلادي ٩

السيد ضرار صالح ضرار

في فلسفة الحضارة ١٦

محمود أحمد موسى

مشاكل التنمية في البلاد المتخلفة اقتصادياً ٢٨

صالح محمد عثمان

تاريخ كاتب الشونة ٣٨

حسين عثمان شامي

السودان وامكاناته الزراعية للمصنع ٥١

أحمد عمر عبيدالله

الدولة الاتحادية ٦٨

زين العابدين سراج الدين

محمد أحمد المهدي بعد موقعة أبا ٨١

محمود عبدالله برات

الشلك ٩٢

نمر سليمان سعد

الشعراء التقليديون امام التحدي ٩٧

شكر ابراهيم محمد أحمد

الفنون السودانية ١٠٤

كمال محمد البرير

الحركة الوطنية السودان ١١١
من فبراير ١٩٣٨ الى اكتوبر ١٩٦٤

مطبعة سميا
بيروت - لبنان

مكتبة قطر الوطنية
QATAR NATIONAL LIBRARY
عضو في مؤسسة قطر
Member of Qatar Foundation
QATAR NATIONAL LIBRARY
3 9999 00590 336 2

طبع بدار الثقافة ـ بيروت
ص. ب. ٥٤٣

السودان

١٩٦٥